الفصل الثاني

دور آسيا الصغرى في السياسة البيزنطيةتجاه الحروب الصليبية

- آسيا الصغرى بين الكسيوس كومنين وقادة الحملة الصليبية الأولى.
- دور حملة سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) في السياسة البيزنطية تجاه آسيا الصغرى.
- سياسة مانويل كومنين تجاه الحملة الصليبية الثانية.
- موقف إسحاق الثاني إنجيلوس من جيش فردريك بربروسا.

شكلت آسيا الصغرى جزءًا هامًا وحيويًا داخل الدولة البيزنطية، فلم تقتصر أهميتها على النواحي الاقتصادية فحسب بل امتدت لتشمل الجوانب السياسية والدفاعية، حيث كانت موقعًا هامًا وحصنًا منيعًا يحمي الدولة البيزنطية من ناحية الشرق، ففيها نظمت الثغور (الثيمات)[١]؛ للدفاع عن أراضيها وحمايتها من الهجمات التي كانت تشنها قوى الشرق الإسلامي عليها مما دفع بعض الباحثين المحدثين إلى القول:«إن آسيا الصغرى شكلت قلب الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وإن القسطنطينية لم تكن سوى موقعًا للدفاع على الشاطئ الأوروبي»[٢].

أما عن الأهمية الاقتصادية لآسيا الصغرى بالنسبة للدولة البيزنطية فإنها كانت المصدر الرئيسي لثروتها، ودعامة اقتصادها، ومركزها التجاري النشط، وهذا ما عبر عنه نورمان بينز Norman Baynesبقوله: «إن العامل الأساسي في ازدهار الدولة البيزنطية ورخائها يكمن في امتلاكها آسيا الصغرى التي كانت بمثابة مستودع الرجال والأموال على حد سواء»، فقد عاش على أراضيها الجانب الأكبر من سكان الدولة البيزنطية، وكانت المصدر الرئيسي لثروة الدولة الاقتصادية؛ فعلى أرضها نمت كافة أنواع المحاصيل الزراعية، وكانت غنية بالمناجم التي احتوت في باطنها على مختلف المعادن الهامة، وانتعشت فيها الصناعات، فضلاً عن كونها مركزًا لحركة تجارية نشطة[٣].

هكذا كانت آسيا الصغرى تمثل موردًا هامًا ساهم في قوة اقتصاد الدولة البيزنطية بالقدر الذي دفع أحد الباحثين يذهب إلى القول: بأن ما أصاب الدولة البيزنطية في القرن الحادي عشر الميلادي من ضعف واضطراب لم يكن سببه الضعف السياسي بقدر

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن نظام الثغور في آسيا الصغرى:
السيد الباز العريني، أجناد الروم، (لقاهرة ١٩٥٦).

(2)Lilie, Twelfth- Century Byzantine, p. 42؛ Charanis, P., "Cultural Diversity and The Breakdown of Byzantine Power in Aisa Minor", D.O.P., 29 (1975), p.3؛ Diehl, Byzantium, pp. 112-113.

(٣) نقلاً عن:
Charanis, Cultural Diversity, p. 3؛ Vryonis, Decline, p. 406؛ Idem, "Problems in the History of Byzantine Anatolia", T.A.B., I (1963), p. 114.

ما كان ناتجًا عن فقدان الدولة البيزنطية للموارد الاقتصادية التي كانت تتدفق عليها من آسيا الصغرى، فضلاً عن أموال الضرائب التي كانت تمثل جزءًا كبيرًا من إيرادات الخزانة الإمبراطورية(١).

إضافة إلى ما سبق، فإن آسيا الصغرى شكلت موردًا بشريًا لا يستهان به للدولة البيزنطية؛ حيث أمدتها بعدد كبير من القادة والجنود الذين شكلوا أساس الجيوش البيزنطية التي تصدت لهجمات المسلمين في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وعلى أيديهم تحققت انتصارات كبيرة للدولة البيزنطية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ومن مدنها الساحلية جندت معظم قوات الأسطول البيزنطي، وقدمت العديد من الأسر الحاكمة الشهيرة للدولة البيزنطية، فمنها جاءت أسر فوقاس، وديوجنيس، وبوتانياتس، ودوقاس، وكومنين، التي لعبت دورًا بارزًا في تاريخ الدولة البيزنطية في عصرها الوسيط، وكذلك أمدت الدولة البيزنطية بنخبة ممتازة من موظفي البلاط الإمبراطوري(٢).

على هذا النحو تتضح المقومات التي جعلت لآسيا الصغرى مكانًا بارزًا في تاريخ الدولة البيزنطية، التي عبر عنها أحد الباحثين بقوله: إن آسيا الصغرى لم تكن تقل أهمية عن القسطنطينية في السياسة البيزنطية، فكلتاهما كانتا تشكلان قلب الدولة البيزنطية النابض، وإن أي تهديد لآسيا الصغرى كان يشكل تهديدًا خطيرًا للدولة البيزنطية ذاتها(٣).

ومن ثم لم يكن غريبًا أن تلقي آسيا الصغرى بظلالها على سياسة الأباطرة البيزنطيين تجاه الحملات الصليبية المارة بأراضيهم، بل يمكن القول بأنها كانت تمثل العامل الأساسي والمهيمن الذي صاغ طبيعة العلاقات بين الجانبين، تلك العلاقات

---

(1)Vryonis, Decline, p. 405؛ Herrin, J., "The Collapse of the Byzantine Empire in Twelfth Century: A Study of A Medieval Economy", U.B.H.S., 1 (1970), pp. 189-190

(2)Diehl, Byzantium, pp. 114-115؛ Charanis, Cultural Diversity, p. 3؛ Vryonis,Decline, p.405.

(3)Lilie, Twelfth- Century Byzantine, p. 42.

التي كان محورها المساعدات البيزنطية مقابل تعهدات صليبية برد كافة الأراضي البيزنطية المتوقع استردادها من أيدي السلاجقة في آسيا الصغرى.

آسيا الصغرى بين الكسيوس كومنين وقادة الحملة الصليبية الأولى:

كانت استعادة الأراضي التي فقدتها الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى هي القضية الأساسية التي استحوذت على فكر الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، ولعبت دورًا بارزًا في صياغته لأسلوب التعامل مع قادة الحملة الصليبية الأولى، ولكن لم تكن الجيوش المنظمة القادرة على الحرب والقتال هي أول من وصل إلى القسطنطينية من الصليبيين، وإنما كانت جموع حملة العامة-المفتقرون إلى النظام- بقيادة والتر المفلس Walter Sans Avoir وبطرس الناسك Peter The Hermit.

وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الكسيوس أن يكون واقعيًّا في تعامله مع هذه الحشود، وربما رادوه الأمل في الاستفادة منها، وتجنيدها كقوات مرتزقة تعمل في خدمته وتحت رايته، ويستخدمها في عملية استرداد الأراضي البيزنطية المفقودة في آسيا الصغرى، فبادر بإرسال مبعوثية إلى بطرس الناسك بمجرد دخوله الأراضي البيزنطية طالبًا منه الإسراع في المسير لمقابلة الإمبراطور المتشوق إلى رؤيته، ولم يكن غريبًا أن يستقبله الكسيوس بما استطاع كرم الضيافة البيزنطي أن يجود به من صور، واعدًا إياه بمساعدته في تحقيق هدفه الذي جاء من أجله إلى الشرق[1]، وكان يهدف من وراء ذلك أن يكسبه إلى جواره وخطوة يمهد بها لسياسته.

غير أن الكسيوس سرعان ما أدرك صعوبة الاستفادة من هذه الحشود الفوضوية، التي تجهل أبسط قواعد الحرب والقتال، كما أنها تتكون من الرهبان والنساء والشيوخ والأطفال، فضلاً عن اللصوص وقطاع الطرق، مما جعله يتأكد من صعوبة السيطرة عليها، وتدريبها على فنون الحرب، لذلك أسرع بنقلهم إلى آسيا الصغرى في شعبان (٤٨٩هـ/ أغسطس ١٠٩٦م)، متخليًّا عن فكرة الاستعانة بهم في تحقيق هدفه، لتلقى هذه الحملة مصيرها المحتوم فوق أراضيها[2].

---

(1)Duncalf, F., "The Peasants' Crusade", A.H.R. 26 (1921), p. 447.

حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، (القاهرة ١٩٤٧)، ص٣٥؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص١٣١.

(2)Payne, R., The Dream and The Tomb, A History of The Crusades, (U.S.A.

وبعد أن لقيت حملة العامة نهايتها المشئومة فوق أراضي آسيا الصغرى، نهض الغرب الأوروبي يتهم الكسيوس بالخيانة لها في آسيا الصغرى فراح ريموناجيل Raymond of Aguilers، يعبِّر عن ذلك بقوله:«خانه (بطرس الناسك) الكسيوس عندما أجبره هو وأتباعه على عبور المضايق رغم أنه يدرك بأنهم لم يكونوا على دراية بأصول الحرب، ولا بفنونها، ولا يملكون دفاعات قوية ضد الأتراك»[١].

بينما ذكر المؤرخ المجهول: أن الكسيوس لم يستطع إخفاء فرحته العارمة عندما ذاع نبأ تشتيت السلاجقة لرجالنا[٢].

ربما كانت هذه الاتهامات وجيهة من الناحية النظرية خاصة وأن هذه الجموع قد أتت على الأخضر واليابس وهي في طريقها إلى القسطنطينية[٣]، وكان على الكسيوس أن يسعى قدر استطاعته إلى إبعادها عن عاصمته، إلا أنه من الناحية العملية فإن الكسيوس لم يقدم منذ أن وطأت أقدام الصليبيين أراضيه على أي تصرف يظهر رغبة منه في القضاء عليهم، أو تقديمهم لقمة سائغة للسلاجقة، بل على العكس من ذلك فقد تعامل معهم بحكمة، وقدم لهم كل المساعدة، وعمل على تأمينهم.

والأكثر من ذلك أنه عندما رأى ضعف هؤلاء وافتقارهم إلى المقدرة العسكرية التي تؤهلهم لمواجهة السلاجقة حاول إقصاء بطرس الناسك عن إصراره على العبور إلى آسيا الصغرى، وناشده البقاء في أراضيه حتى وصول الجيوش الصليبية النظامية،

=

1984), p. 43.

جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص١٣٢.

(١) ريموناجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة إلى الإنجليزية/ جون هيوج هيل- لوريتا ل هيل، ترجمة إلى العربية/ حسين محمد عطية، (الإسكندرية ١٩٩٠)، ص٧٨.

(٢) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٢٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول أحداث خط سير حملة العامة حتى وصولها للقسطنطينية:

Runciman, S., "The Frist Crusaders' Journey Across The Balkan Peninsula" B, 19 (1949), pp. 210-214؛ Duncalf, F., "The Frist Crusade: Clermont to Constantinople", I, (Philadelphia 1955), pp. 259-262؛

Kerr, A.J.C., The Crusades, (New York 1966), pp. 21-22.

ليلى عبد الجواد إسماعيل، بلاد المجر والحملة الصليبية الأولى، مقال مستخرج من كتاب (سعيد عاشور إليه في عيد ميلاده السبعين)، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص٢٣٥-٢٤٨.

وتحاشيًا للنتائج الوخيمة التي قد تنتج عن هذه الرحلة الانتحارية في قلب آسيا الصغرى[١]. وجاء ذلك على لسان المؤرخ المجهول نفسه حينما ذكر على لسان الكسيوس نصيحته لبطرس الناسك بقوله: «لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش الصليبي؛ لأنكم لستم بالكثرة التي تمكنكم من محاربة الترك»[٢].

لاشك أن الكسيوس كان يدرك تمامًا المصير المحتوم لصليبي هذه الحملة، إلا أنه قام بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وبذلك وضع نفسه موضع الاتهام بأنه كان السبب في الكارثة التي لحقت بهم هناك، لكنه كان مضطرًا إلى ذلك أمام حوادث عنفهم، وهو ما أشار إليه المؤرخون اللاتينيون أنفسهم عندما ذكروا: أن ما قامت به جموع حملة العامة من أعمال سلب ونهب للدور والقصور وحتى الكنائس نفسها، أثار سخط الإمبراطور مما دفعه إلى الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى[٣]. ومع ذلك فقد نصحهم بالبقاء داخل معسكرهم في كيفتوت، وتجنب الاحتكاك بالسلاجقة حتى تصل إليهم القوات النظامية، وقدم لهم المرشدين لمساعدتهم في عبور آسيا الصغرى[٤].

فضلاً عن أن المنطقة التي نقلهم إليها الكسيوس كانت آمنة من الهجوم السلجوقي، وقد أقاموا فيها لمدة شهرين دون أن يتعرضوا لأية هجمات سلجوقية، بل إنهم هم الذين بدأوا بالعدوان على الأراضي السلجوقية عندما شرعوا في أعمال السلب والنهب حتى وصلوا إلى أبواب نيقية[٥]، ولم يكن ذلك بدافع الحاجة، خاصة وأن

---

(١) أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٤.

Krey, A.C., The Frist Crusade, Accounts of Eye-Witnesses and Participants (London 1958), p. 71؛Norwich, Byzantium, pp. 33-34؛
Franzius, Byz. Empire, p. 304.

(٢) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص١٨؛بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص٦٢.

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص١٨؛بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص٦٢.

(Mills, Ch., The History of the Crusades for The Recovery and Possession of the Holy Land, 1, (London 1828), p. 70؛ Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 404).

(4)Chalandon, Alexis 1er Comnene, pp. 171-172؛ Fletcher, C.R.L., The Making of Western Europe, 2, (London 1914), p. 350؛ Kerr, Crusades, pp. 22-23.

(٥) أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٤؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص١٢٤-١٢٥. =

التجار البيزنطيين كانوا يمدونهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤن طول مدة إقامتهم في كيفتوت، بل كان نتيجة الشعور بالملل الذي انتابهم من طول إقامتهم داخل المعسكر دون وصول الجيوش الصليبية النظامية[١].

هكذا يتضح أن الكسيوس لم يظهر أي تقصير تجاه حملة العامة، بل عمل على تأمينها، وظل يمد رجالها بما يحتاجون إليه طول مدة إقامتهم في المعسكر، ولم يبخل عليهم بالنصيحة؛ فعندما علم بتوغلهم في المنطقة السلجوقية أرسل إليهم يحذرهم من مغبة ما يقترفون من أعمال تثير العدو، وأمرهم بالبقاء داخل معسكرهم وعدم الاحتكاك بالسلاجقة[٢].

ولعل خير دليل على براءة ساحة الكسيوس من هذا الاتهام، هو أن بطرس الناسك نفسه–وهو قائد الحملة– لم ينسب إليه أي تقصير أو إهمال تجاه الصليبيين، فعندما التقى به الأمراء الصليبيون في القسطنطينية وسألوه عن سبب هزيمة رجاله في آسيا الصغرى، وصف لهم روح الفوضى والتمرد التي كان عليها هؤلاء الرعاع العصاة، الذين رافقوه في رحلته، وأرجع سبب النكبة التي حلت بهم إلى سلوكهم الفوضوي أكثر من أي شيء آخر[٣]. يضاف إلى ذلك أن الكسيوس بمجرد أن علم بما حل بهم على أيدي السلاجقة تأثر بشدة وأرسل لهم جانبًا من أسطوله لنجدتهم، الأمر الذي أجبر السلاجقة على رفع الحصار عمن تبقى منهم، وقام بنقلهم إلى القسطنطينية حيث استقبلهم الإمبراطور خير استقبال[٤].

على هذا النحو، يمكن القول بأن الكسيوس لم يكن يهدف من وراء نقل جموع حملة العامة إلى آسيا الصغرى إلى القضاء عليهم، أو تقديمهم فريسة سهلة للسلاجقة، بقدر

=

Duncalf, Peasants' Crusade, pp. 450–451؛Payen, Crusades, p.43.

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص١٢٥.

Duncalf, Peasants' Crusade, p.451؛ France, Victory, p. 93.

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص١٢٥.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص١٨٨.

(٤) أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٥–١٦.

Krey, Frist Crusade, p. 78؛ Duncalf, Peasants' Crusade, 451؛ Mills, Crusades, I, pp.73–74.

ما كان يهدف إلى حماية عاصمته من اعتداءاتهم، وحفاظًا على أراضيه من سلبهم ونهبهم[1]، خاصة وأن الكسيوس لم يكن بالسذاجة السياسية التي تجعله يساعد في القضاء على هذه الجموع ويثير بذلك مشاعر إخوانهم الأمراء، الذين كانوا على وشك الوصول إلى عاصمته، ومضحيًا بإمكانية تعاونهم معه في تحقيق حلمه الأثير باستعادة أراضيه في آسيا الصغرى.

وإذا كان الغرب الأوربي قد أشار بأصابع الاتهام إلى الكسيوس، فقد جاء ذلك نتيجة لضخامة الكارثة التى حلت بهذه الجموع في آسيا الصغرى، بل يمكن القول بأنه لو كانت حملة الأمراء قد تعرضت لنفس المصير لكان الغرب الأوربي قد كرر نفس اتهامه لالكسيوس متناسيًا ما قدمه من مساعدات وتسهيلات لقادة هذه الحملة.

على أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته، هو أن حملة العامة وما أحدثته من شغب ودمار عبر الأراضي البيزنطية قد نبهت الكسيوس إلى الخطر الذي قد تتعرض له دولته من الجيوش الصليبية القادمة، لذلك عمل على رسم إستراتيجية محكمة لحماية أراضيه منهم والإفادة من هذه الجيوش[2]، وربما استقر في ذهنه أنه إذا كان الحظ لم يحالفه في تسخير حملة العامة لخدمة أهدافه في آسيا الصغرى، فإن الفرصة قد واتته الآن للاستفادة من هذه الجيوش المنظمة، إلا أن تحقيق ذلك كان أمرًا صعبًا للغاية استغرق منه ستة أشهر تكبد خلالها الكثير من المشاق لإخضاع هؤلاء الأمراء الذين اتسموا بالجموح وصعوبة المراس، ومن أجل انتزاع تعهد منهم باسترجاع أية أراضي بيزنطية يستردوها من السلاجقة في آسيا الصغرى، وذلك من خلال إلزامهم بأداء قسم الولاء والإخلاص له[3].

---

(1)Duncalf, Peasants' Crusade, p. 451.

جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص١٦١.

(٢) عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية، ص٨٦.

(3)Pryor, J.H., "The Oaths of the Leaders of the Frist Crusade to Emperor Alexius I Comnenus: Fealty, homage", Parergon, N.S., 2 (1984), p. 111.

- ناقش براور Pryor، طبيعة هذا القسم ونفى ما ذكره معظم مؤرخي الحروب الصليبية من أن الأمراء، أدوا قسم البيعة الإقطاعية للإمبراطور وأصبحوا أقصاله، وخرج بنتيجة مفادها أن قسم الولاء والإخلاص يعني: أنهم لن يلحقوا أي ضرر بالأراضي البيزنطية أثناء سيرهم وأن يعملوا على تحقيق الأهداف البيزنطية بألا

ولا ريب في أن الإستراتيجية التي صممها الكسيوس للتعامل مع الأمراء الصليبيين قد ارتبطت أساسًا بأهدافه ومصالحه في آسيا الصغرى، فالكسيوس-كما سبق ذكره- لم يكن راغبًا في حملة صليبية بقدر ما كان في حاجة إلى مساعدة عسكرية، غير أنه فوجئ بجموع من الغوغاء أصابته بالإحباط، ثم بجيوش صليبية منظمة على رأسها أمراء يدينون بالولاء لسادتهم الإقطاعيين-ملوك غرب أوربا-، الأمر الذي أثار قلقه وانزعاجه، خاصة وأن هؤلاء الأمراء لم يحاولوا تهدئة مخاوفه أو إزالة شكوكه، فقد تصرف أول من وصل منهم إلى الأراضي البيزنطية وهو هيواف فيرماندوا Hugh of Vermandois كما لو أنه ند للإمبراطور(١)، وسارت قوات جودفري دي بوايون Godfrey de Bouillon كما لو كانت في بلد معادٍ، ونشب قتال بينها وبين القوات البيزنطية خارج أسوار القسطنطينية(٢)، وهو الأمر الذي تكرر حدوثه مع قوات ريموند الرابع كونت تولوز Raymond IV Count of Toulouse(٣).

من أجل ذلك كان من الطبيعي أن يعمل الكسيوس على تحديد علاقته مع الأمراء الصليبيين المارين بأراضيه إلى الشرق، بما يضمن لدولته الحفاظ التام على أراضيها واستعادة ما فقدته في آسيا الصغرى، وما دام الغرب الأوربي قد أعلن أنه جاء لحماية المسيحية الشرقية من أعدائها، فلا ضير مطلقًا من استخدام قواته لاسترداد أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى مقابل تقديم التسهيلات والمساعدات لها(٤).

=

يحتفظوا بأي مناطق كانت قد فقدتها الدولة البيزنطية للسلاجقة إذا استولوا عليها، وأن تكون جيوشهم في خدمة الدولة البيزنطية من أجل استرداد أراضيها في آسيا الصغرى.

Pryor, Oaths of the Leaders, pp. 122-124.

(١) أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل:

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٢١-٢٦؛ وليم الصوري، الحرب الصليبية، ج١، ص١٥٥-١٦٣.

Payne, Crusades, pp. 53-56.

(3)Riley-Smith, Crusades, p. 24؛Lilie, R.J., Byzantium and The Crusader Sates 1096-1204, English Trans. Morris, J.C., & Ridings, J.E., (Oxford 1993), pp. 3-5.

عامرة الحمد، الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيون، ص٤٨-٤٩.

(٤) رأفت عبد الحميد، "بيزنطة وخيانة القضية الصليبية"، ضمن كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية،=

ويعقد جيبون مقارنة بين وضع الكسيوس ووضع أحد الرعاة في أسطورة شرقية قديمة والذي دُمِّر عندما تحققت آماله؛ حيث ظل يصلي ويتعبد من أجل نزول المطر، وعندما نزل الماء اكتسح الفيضان كوخه وقطيعه، فيرى جيبون بأن الكسيوس يتشابه مع هذا الراعي إلى حد كبير؛ حيث ناشد الغرب المساعدة فنُبِلَ بحشود كاسحة، غير أنه اختلف في المصير الذي آل إليه عن الراعي؛ حيث استطاع ببراعته وذكائه ليس فقط تجنب وقوع مصادمات عنيفة مع الصليبيين، بل استطاع كذلك توجيههم لخدمته وتحقيق هدفه الرئيسي وهو استعادة أراضيه في آسيا الصغرى[١].

من هنا أصر الكسيوس على أن يقسم له الأمراء يمين الولاء، حتى يضمن التزامهم بإعادة كافة الأراضي البيزنطية المتوقع الاستيلاء عليها من السلاجقة في آسيا الصغرى[٢]، واستخدم الإمبراطور في سبيل ذلك كافة الوسائل الممكنة من الترغيب إلى الترهيب، فاستقبل بعضهم بالترحاب وأغدق عليهم الأموال والهدايا حتى أقسموا له مثلما فعل مع هيوفيرماندوا[٣]، واستخدم في نفس الوقت سلاح القوة والترهيب مثلما فعل مع جودفري عندما رفض تأدية القسم، فقام بقطع المؤن عنه أكثر من مرة، ثم أمر القوات البيزنطية بالهجوم على رجاله حتى رضخ في النهاية لرغبة الإمبراطور وأدى القسم له[٤].

أما بوهيموند فقد استجاب لأداء القسم دون معارضة[٥]، بينما اكتفى ريموند

=

(القاهرة ١٩٩٨)، ص١٠٤.

(١) نقلاً عن:

Charanis, Amis of The Medieval Crusades, p. 128.

(2)Munro, D.O., The Kingdom of the Crusaders, (New York 1935), p. 42.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٢٤؛ عامرة الحمد، الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيون، ص٥٠.

(٣) أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٨.

Lilie, Crusader States, pp. 7-8.

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٢٤-٢٥؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص٧٦؛ أنا كومنينا، الالكسياد، ص٢٦.

Payne, Crusades, p. 56؛France, Victory, p. 114.

(٥) لمزيد من التفاصيل:

=

بالقسم بالمحافظة على حياة الإمبراطور وممتلكاته وعدم الإضرار بها[١]، وأخيرًا لم يجد الكسيوس صعوبة تذكر في الحصول على القسم والتعهد بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى من آخر جيوش حملة الأمراء بقيادة ستيفن كونت بلو Stephen Count of Blois[٢]، وروبرت كونت فلاندرز Robert Count of Flandres[٣].

على هذا النحو، نجح الكسيوس على حمل أمراء الحملة الصليبية الأولى على أداء قسم الولاء له، وتم عقد معاهدة في القسطنطينية، تعهد فيها الأمراء بإعادة كافة الأراضي المتوقع الاستيلاء عليها في آسيا الصغرى من السلاجقة، والتي كانت فيما سبق خاضعة للسيادة البيزنطية، وفي المقابل وعدهم الكسيوس بتقديم المساعدة العسكرية برًا وبحرًا، وإمدادهم بما يحتاجون إليه من مؤن وإمدادات أثناء رحلتهم، وتعويضهم عن كل الخسائر التي لحقت بهم، مع منح الأمان لجميع الحجاج المارين عبر أراضي دولته[٤].

=

المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٠-٣١؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص٨١-٨٢؛ أنا كومنينا، الالكسياد، ص٣٢.

Lilie, Crusader States, pp. 9-10

(١) ريموناجيل، تاريخ الفرنجة، ص٧٢.

Pryor, Oaths of the Leaders, pp. 124-126؛Payne, Crusades, p. 62.

(٢) ستيفن كونت بلوا، ترك هذا القائد الحملة الصليبية الأولى أثناء حصار انطاكية وقبل الوصول إلى بيت المقدس، ويرى برندج Brundage، أن سبب ذلك هو اعتقاد ستيفن أن دوره قد انتهى بعد أن أصبحت المدينة على وشك الوقوع في أيدي الصليبيين ورغبة منه في عدم التورط في النزاعات التي ستندلع بين الأمراء الصليبيين بعد سقوط المدينة، إلا أن هذه العودة كانت السبب الذي دفع الكثير إلى اتهامه بالخيانة وأصدر البابا ضده قرار الحرمان الأمر الذي دفعه إلى المشاركة في الحملة الصليبية لسنة ١١٠١م.

لمزيد من التفاصيل:

Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, English Trans., Chibnall, M., 5, (Oxford 1975), p. 325؛ Brundage, J.A., "An Errant Crusader. Stephen of Blois" T, 16 (1960), pp. 381-391.

فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٢٣.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص١٨٩-١٩٠.

Lilie, Crusader States, p. 12.

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣١.

=

وقد وفَّى الكسيوس بتعهداته تجاه الأمراء الصليبيين؛ فقدم لهم السفن اللازمة للعبور إلى آسيا الصغرى، ووفر لهم ما احتاجوا إليه من مؤن وإمدادات، وقدم لهم فرقة من الجيش البيزنطي بقيادة تاتيكيوس Tatikios، فضلاً عن المرشدين والكشافين وآلات الحصار، وكان مستعدًا لأن يقدم لهم كل وسائل المساعدة بشرط أن يستمروا في المحافظة على قسم الولاء وإعادة ما يفتحونه من مدن في آسيا الصغرى إليه[١].

أما بالنسبة للصليبيين، فقد كان اجتياز الأمراء لمدينة نيقية هو أول اختبار عملي يبين مدى التزامهم ببنود الاتفاق المبرم بينهم وبين الكسيوس، خاصة وأن الإمبراطور قدم لهم كل ما احتاجوا إليه لحصار تلك المدينة، وأرسل إليهم السفن التي أغلقت بحيرة نيقية[٢]، وأتمت الحصار حول المدينة، فضلاً عن فرقة من الرماة تألفت من ٢٠٠٠ فارس، وكان لهذه المساعدة دور كبير في استسلام المدينة[٣].

والتزم الصليبيون أيضًا باتفاقهم مع الكسيوس، فبعد استسلام نيقية في رجب (٤٩٠هـ/ يونيه ١٠٩٧م)، تنازل عنها الصليبيون للإمبراطور، وبذلك عادت مدينة نيقية للدولة البيزنطية بعد ستة عشر عامًا من السيطرة السلجوقية، وذهب القادة في اليوم إلى الإمبراطور لتجديد القسم ولشكره على ما قدم لهم من مساعدات، وتهنئته بعودة نيقية إليه، قبل أن يواصلوا رحلتهم عبر آسيا الصغرى[٤].

=

Lilie, Crusader States p. 12؛ Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 408؛ Angold, Byz. Empire, p. 140.

– لم تذكر أنا كومنينا أي تعهد من قبل الكسيوس للصليبيين وإنما تضع التعهدات فقط على الصليبيين مما يعكس وجهة النظر البيزنطية من أن الصليبيين ما هم إلا مرتزقة في خدمة الكسيوس يعملون لتحقيق أهدافه.
أنا كومنينا، الالكسياد، ص٢٦.

[France, Victory, p. 117].

(1)Payne, Crusades, pp. 62–63. Angold, Byz. Empire, p. 140؛
عامرة الحمد، الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيون، ص٦٨.

(٢) بحيرة نيقية، بحيرة كبيرة تقع غرب مدينة نيقية، يصل طولها ٤٠كم، وتوفر حماية طبيعية للمدينة من ناحية الغرب.

France, Victory, p. 143.

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر الفصل الثالث.

(4)Lilie, Crusader States, p. 12؛ Angold, Byz. Empire, p. 140؛ Ostogorsky, Byz. State, p. 332.

ومن نيقية كانت كل مدينة تستسلم للصليبيين كانوا يسلمونها إلى تاتيكيوس باستثناء مدن قيلقية التي رفض بلدوين Baldwin وتانكرد Tancred إعادتها للإمبراطور[١].وبذلك قام الصليبيون بتسليم كافة المدن التي استولوا عليها للقائد البيزنطي حتى وصلوا إلى مدينة مرعش[٢].

لم تكن هذه فقط هي المكاسب التي أحرزها الكسيوس من وراء الحملة الصليبية الأولى، بل استغل الإمبراطور الضربة التي أنزلها الصليبيون بالسلاجقة، وأدت إلى انسحابهم من مدن نيقية وضورولیوم Dorylaeum (اسكى شهر)، وأنطاكية-بيسديا Antioch- pisidia[٣]، وقونية وهرقلة، وغيرها من المدن إلى السهل الداخلي، وشرع في الاستيلاء على الجانب الغربي من آسيا الصغرى[٤]، فبعد أن قام بتحصين نيقية والاستيلاء على الحصون التي تتحكم في الطريق إلى ضورولیوم أرسل القائد يوحنا دوقاس على رأس جيش كبير يسانده الأسطول بقيادة كاسباكس Kaspaxللاستيلاء على ساحل أيونيا ومنطقة فريجيا، وأعطى زوجة قليج أرسلان الأول وابنة تزاخاس لقائد الجيش حتى يتأكد حكام تلك الجهات من هزيمة السلطان فيدب اليأس في نفوسهم ويستسلمون له.

---

(١) بعد هرقلة انفصل تانكرد وبلدوين عن الجيش الرئيسي الذي سار بطريق قيصرية إلى أنطاكية وسارا بطريق أبواب قليقية، ونجح تانكرد في الوصول أولًا إلى طرسوس واستولى عليها بمساعدة الأرمن، واتجه إلى إذنه وانتزعها من السلاجقة ومنها إلى المصيصة التي نجح في دخولها بعد فرار حاميتها السلجوقية ورفض إعادتها للدولة البيزنطية:

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٣٥-٢٤٧.

Forse, J.H., "Armenians and The Frist Crusade" J.A.H., 17 (1991), pp 14-15.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٩٦-٣٠٢.

(٢) جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص٢٣٧؛ عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص٢١١.

(٣) أنطاكية بيسديا، تقع شرق بحيرة اجردير Egirdir على الطرق الممتدة عبر جنوب آسيا الصغرى في وادي خصب.

Ramsay, Historical Geography, p. 150؛O.D.B., I, p. 113.

(4)Vryonis, Decline, pp. 116-117؛ Taeschner, Turks and the Byzantine Empire, p. 741؛ Sayar, M., "The Empire of The Salcuqids of Asia Minor" J.N.E.S., 10 (1951), p. 270؛ Ostrogorsky, Byz. State, p. 322.

وبدأت القوات البيزنطية عملياتها العسكرية في غرب آسيا الصغرى بمدينة أزمير (سميرنا)، التي كان يحكمها ابن تزاخاس، فوصل إليها يوحنا دوقاس ونصب معسكره على مقربة من أسوراها، بينما قام كاسباكس بإرساء سفنه في الميناء، وبذلك تم حصار المدينة برًا وبحرًا، الأمر الذي دفع حاكمها إلى التسليم بشرط السماح له ولرجاله بالرحيل دون تعرض القوات البيزنطية لهم، وبذلك استولى البيزنطيون على هذه المدينة دون إراقة الدماء(١).

ثم زحفت القوات البيزنطية بعد ذلك بقيادة يوحنا دوقاس إلى مدينة أفسوس، التي كان يحكمها الأمير تنجارميش وتم الاستيلاء عليها بعد معركة عنيفة، قتل فيها الكثير من السلاجقة، وأسر حوالي ٢٠٠٠ شخص(٢)، وبينما كان كاسباكس يحتل بأسطوله الساحل والجزر توغل يوحنا إلى الداخل يطارد السلاجقة الذين فروا عبر نهر الميأندر، واستولى أثناء زحفه على مدن ساردیس وفيلادلفيا Philadelphia(٣)، ثم اتجه نحو لأودكيا التي خرج سكانها لاستقباله، فعفا عنهم، وسمح لهم بالإقامة في مدينتهم دون التعرض لهم، ومنها اتجه إلى عدة مدن نجح في الاستيلاء عليها، أهمها مدينة بوليبوتوس Polybotos(٤)، التي كان قد احتشد فيها عدد كبير من السلاجقة، فقام بمهاجمتها ووقع قتال كبير بين الجانبين انتهى بانتصار القائد البيزنطي والاستيلاء على كميات كبيرة من الغنائم، ولم ينته خريف سنة (١٠٩٧م) إلا وصار الإقليم كله في قبضة البيزنطيين، واستعد القائد البيزنطي للزحف جنوبًا نحو أضاليا، بينما نجح الكسيوس أثناء ذلك في استعادة معظم إقليم بيثينيا(٥).

---

(١) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٥٠-٥٢؛ عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص٢١١.

(٢) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٥٢-٥٣.

(٣) فيلادلفيا، مدينة في ليديا في ثغر تراقسيون، احتلها السلاجقة بعد موقعة مانزيكرت وكانت لها شهرة كبيرة كحصن عظيم على الحدود البيزنطية مع السلاجقة وقاعدة للحملات البيزنطية إلى الشرق.
لمزيد من التفاصيل
Ramsay, Historical Geography, p. 121؛ O.D.B., I, p. 1648.

(٤) بوليبوتوس، تقع في إقليم Paroreios Phrygia، ويمتد هذا الإقليم من سلطان داغ إلى أمير داغ.
محمد الوسيمي، علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية، ص١١١.

(٥) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٥٣.
=

هكذا استطاع البيزنطيون استرداد الجزء الغربي من آسيا الصغرى ومعظم سواحلها الشمالية والجنوبية كنتيجة مباشرة للحملة الصليبية الأولى، وكان لذلك أهمية كبيرة، ويتضح هذا من خلال مقارنة حدود دولة سلاجقة الروم سنة (١٠٩٥م)، وبين ما صارت عليه سنة(١٠٩٨م)، ففي سنة (١٠٩٥م) كانت الحدود السلجوقية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا، أي على مسافة صغيرة من بحر مرمرة ومضيق البسفور، وكان يحكم سميرناوافسوس أمراء سلاجقة، أما في سنة (١٠٩٨م)، فكان قد تم طرد السلاجقة من بيثينيا وايونيا وليديا وفريجيا، وتراجعت الحدود السلجوقية في آسيا الصغرى إلى الوراء ما لا يقل عن ٢٠٠ ميل، أي إلى ما وراء تلال بيثينيا[١].

فعندما تقدم الكسيوس سنة (١٠٩٨م)، ليلتحق بالصليبيين عند أنطاكية استطاع أن يتقدم بدون صعوبة حتى وصل إلى مدينة فيلوموليون Philomilion[٢](انظر الخريطة رقم ٢)، وبعد ذلك بقليل استطاعت قواته البرية والبحرية السيطرة على جنوب آسيا الصغرى، وأمر بإعادة بناء وتحصين عدة مدن هناك[٣].

=

Vryonis, Decline, p. 117؛ Norwich, Byzantium, p. 44.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٣٩١؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٣٤.

(1)Wittek, P., "Deux Chapiters de L'Histoire des Turcs de Roum", B, (1936), p. 296؛ Hussey, J.M., "Byzantium and The Crusades 1081-1204" in: Setton, K.M & Baldwin, M.W. (eds), A History of the Crusades, 2 (Philadelphia 1962), p. 129.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٣٤.

أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ مصطفى طه بدر، (القاهرة ١٩٥٣)، ص٢٠٦-٢٠٧.

(2)Vryonis, Decline, p. 117.

عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص٢١٢.

- فيلوموليون، احتلت مكانة هامة كمدينة حدودية بين البيزنطيين والسلاجقة وتقع في إقليم Paroreios Phrygia الذي يمتد من سلطان داغ إلى أمير داغ، وهو إقليم خصب ويحتوي على عدد كبير من البحيرات.

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, pp. 193-140؛ Webster, Geographical Dictionary, p. 19.

(3)Foss, Defenses of Asia Minor, p. 158. Vryonis, Decline, p. 117؛

مما سبق يمكن القول بأن الحملة الصليبية الأولى نجحت في تحقيق جزء كبير من أهداف الكسيوس ضد السلاجقة الذين انحصروا في قلب آسيا الصغرى، إلا أن هذا لا يعني زوال الخطر السلجوقي، ولكن يمكن القول بأن السلاجقة قد أصبحوا في هذه الفترة وحتى وفاة الكسيوس أقل خطرًا من السنوات الأولى من حكمه[١]، وأن الحملة الصليبية الأولى تعد نقطة تحول خطيرة في تاريخ السلاجقة؛ إذ كانت السبب الذي دفعهم إلى التقهقر بعيدًا عن الساحل وحصرهم في السهل المرتفع وجبال آسيا الصغرى، وأعطت الفرصة الذهبية للبيزنطيين لاستعادة المنطقة الغربية من آسيا الصغرى، وكانت خير أداة استطاعت أن تثأر بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على أيدي السلاجقة منذ موقعة مانزيكرت[٢].

دور حملة سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) في السياسة البيزنطية تجاه آسيا الصغرى:

إن نجاح الحملة الصليبية الأولى أدَّى إلى إغراء الكثير من الأوربيين بحمل الصليب طمعًا في إحراز ما حققه السابقون من المجد والشهرة، بالإضافة إلى أن الأنباء قد وصلتهم في الغرب الأوربي، بأن الصليبيين في الشرق في حاجة ماسة إلى محاربين جدد لمواصلة عملية الفتح خاصة وأن موقفهم كان حرجًا؛ بسبب عودة الكثير من الصليبيين بعد سقوط بيت المقدس إلى الغرب الأوربي، وأن الشرق مليء بالثروات والضياع... الخ التي تنتظرهم، هذا بالإضافة إلى أن مشاركة بعضهم كانت خوفًا من الحرمان الذي أعلنه البابا على كل من أخذ الصليب ولم يذهب للشرق، أو ذهب وعاد قبل الاستيلاء على بيت المقدس، وشكل هؤلاء الحملة الصليبية الجديدة التي عرفت بحملة سنة (١١٠١م)[٣].

أما على الجانب البيزنطي، فقد كانت هناك مساحات كبيرة في آسيا الصغرى لا

---

(١) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٠٧.

(2)France, Victory, p. 184. Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 84-85؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٣٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن أسباب هذه الحملة:

Albert d'Aix, Historia, p. 559؛Orderic Vitalis, Historia, 5, pp. 323-325؛ Cate, J.L., "The Crusade of 1101", in: Setton, K.M., & Baldwin, M.W., (eds), A History of The Crusades I, (Philadelphia 1955), pp. 343-346.

تزال تحت سيطرة السلاجقة، وكان الكسيوس يرغب في إعادة فتح الطريق المؤدي إلى بلاد الشام لتأمين المدن التي تم الاستيلاء عليها جنوب شرق آسيا الصغرى من ناحية، وليتمكن من التدخل في شئون بلاد الشام من ناحية أخرى، ومن ثم كان على أهبة الاستعداد للتعاون مع الجيوش الصليبية الجديدة، التي أخذت تتوافد على أراضيه سنة (١١٠١م)، عسى أن يستغل هذه القوات في تحقيق أهدافه في آسيا الصغرى[١].

كان أول هذه الجيوش الصليبية الجيش اللومباردي بقيادة أنسلم بويه Anselm Buius رئيس أساقفة ميلان، وألبرت كونت بياندرات Albert Count of Biandrat، الذي وصل إلى القسطنطينية في شهر مارس واستقبله الكسيوس استقبالًا طيبًا، وسمح لقواته بإقامة معسكرهم على الساحل الغربي للبسفور، ووزع على قادته الهدايا، وأقام لهم الأسواق، وقدم لهم السفن التي نقلتهم إلى آسيا الصغرى بعد إقامة في القسطنطينية دامت شهرين[٢].

وتم توقيع معاهدة سلام بين الكسيوس واللومبارديين أقسم فيها اللومبارديون قسم الولاء لالكسيوس وتعهدوا بإعادة كافة الأراضي التي قد يستولون عليها من السلاجقة في آسيا الصغرى[٣]. وعندما طلبوا من الإمبراطور قائدًا يرشدهم في آسيا الصغرى لبَّى طلبهم، وألحَّ في ذلك على ريموند كونت تولوز[٤]؛ لما له من خبرة ودراية بطرق آسيا الصغرى وأساليب قتال السلاجقة، واستجاب لطلبه، وقدم لهم أيضًا فرقة من التركوبول Turcopoles[٥] تتألف من ٥٠٠ فارس بقيادة القائد البيزنطي

---

(١) السيد الباز، الحروب الصليبية، ج١، ص٣٠١.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 560؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 327. Oldenbourg, Z., The Crusades, Enlgish Trans., Carter, A., (New York 1967), p. 206؛ Rousset, P.Histoire des Croisades, (Paris 1957), p. 168.

(3)Lilie, Crusader States, p. 67. Albert d'Aix, Historia, pp. 560-562؛

(٤) كان ريموند في ذلك الوقت في القسطنطينية حيث ترك أهله في اللاذقية واتجه إلى الكسيوس يطلب مساعدته لتأسيس إمارة في بلاد الشام بعد أن فشلت كل محاولاته في ذلك هناك واستقبله الكسيوس بالترحاب. أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦١؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٤.

Matthieu D'Edesse, Chronique, p. 241.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٦٩-٢٧١.

(٥) التركوبول، مرتزقة بيزنطيون استخدموا بشكل كبير كفرسان، والتركبلي كلمة يونانية تعني أبناء أو سلالة =

تيستاس Tistas؛ لإرشادهم وتقديم المساعدة لهم، واستلام المدن التي قد يفتحونها من السلاجقة[1].

ثم نصحهم الكسيوس باتباع طريق الحملة الصليبية الأولى؛ لأنه الأكثر أمانًا، ووافق على ذلك ريموند كونت تولوز، وستيفن كونت بلوا، غير أن اللومبارديين رفضوا ذلك؛ وذلك لأنهم علموا أثناء وجودهم بالقسطنطينية أن الأمير كمشتكين الدانشمندي[2]، قد أسر بوهيموند أمير أنطاكية وسجنه في مدينة نيكسار[3]، فأصروا على التوجه إليها لتحريره، خاصة وأنهم يعتبرونه القائد الوحيد الذي يثقون في قدرته على قيادتهم نحو النصر، وراحوا يزعمون أنهم قادرون على التوغل داخل أراضي الدانشمنديين وهزيمتهم والاستيلاء على أراضيهم، وأنهم في استطاعتهم تحقيق نصرًا أعظم مما حققه جيش الحملة الصليبية الأولى، وذلك بالاستيلاء على بغداد عاصمة

=

الترك، إذ ينحدر أفرادها من أب تركي وأم بيزنطية، وتم تكوين هذه الفرقة بعد اتصال البيزنطيين بالسلاجقة بعد مانزيكرت.

بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص٨٧، حاشية ١٣.

(1)Ekkehard of Aura, Hierosolymita, R.H.C–H.Occ., 5, (Pairs 1886), p. 31؛ Albert d'Aix, Historia, pp. 563–564؛ Chalandon, Alexis Ier Comnene, p. 226؛ Archer, T.A., The Crusades, The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem, (London 1894), p. 104.

(٢) كمشتكين الدانشمندي، يعد هذا الأمير هو المؤسس الحقيقي للدولة الدانشمندية في آسيا الصغرى، توفي سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م، وقد أثرت انتصاراته في تاريخ الحروب الصليبية بأكملها ومهدت الطريق لمن جاء بعده من القادة المسلمين لحمل راية الجهاد ضد الصليبيين.

علي محمد عودة الغامدي، المجاهد المسلم، كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين، (السعودية ١٤١١هـ)، ص١٢-١٣، ٧٥.

(٣) هدد كمشتكين الدانشمندي ملطية، فأرسل حاكمها إلى بوهيموند يطلب مساعدته فرحب بذلك ولبى طلبه مسرعًا، وعلم كمشتكين بذلك، فكمن له قرب ملطية، ودار قتال بين الجانبين، انتهى بهزيمة جيش بوهيموند، ووقوعه في الأسر.

لمزيد من التفاصيل:

ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٩؛ الرهاوي المجهول، روايات المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٥، (دمشق ١٩٩٥)، ص٢٦؛ حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص١٢٧-١٢٨؛ علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص١٦-٢٢.

الخلافة العباسية[١]، وعلى ذلك ساروا في طريقهم لتحرير بوهيموند.

بعد ذلك بقليل وفد الجيش الصليبي الثاني بقيادة وليم الثاني -كونت نافار- إلى الأراضي البيزنطية، واستقبله الإمبراطور بنفس الترحاب، وسمح له بإقامة معسكره على البسفور، وقدم لرجاله الكثير من الهدايا، ووزع على جنوده الأموال، وقدم له بعض القوات البيزنطية لتصحبه وترشده في رحلته عبر آسيا الصغرى، وبعد ثلاثة أيام غادر وليم التاسع وقواته القسطنطينية مسرعًا؛ حتى يلحق بالحملة اللومبادرية رغبة منه في مصاحبة أودو Odoدوق برجنديا[٢] المشارك في هذه الحملة[٣].

ولم تشر المصادر التي تناولت هذه الحملة الصليبية إلى أن الكسيوس قد طلب قسم الولاء من وليم الثاني، وإذا كان ذلك يعني أن الإمبراطور لم يطلب هذا الطلب، فمن المحتمل أن سبب ذلك يرجع إلى أن قوات وليم الثاني عبرت الأراضي البيزنطية دون ارتكاب حوادث عنف تثير شكوك الإمبراطور تجاه نواياها، حيث حذر وليم الثاني جنوده من القيام بأي حوادث سلب أو نهب، وهدد كل من تسوِّل له نفسه ذلك بعقوبة الموت[٤].

ومن هنا لم يتوقع الكسيوس أن ينزل هذا الأمير ضررًا بأراضيه أو يستولى على أي جزء منها، ومن ثم لم يجد ما يدعو لأن يكرر عليه طلبًا أصبح أمرًا مسلمًا به وأساسيًا في

---

(١) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦١-٦٢.

Albert d'Aix, Historia, pp. 563-564؛ Chalandon, Alexis Ier Comnene, p.226, Riley-Smith, Crusades, p. 36؛ Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, 1, (Paris 1934), p. 324؛ Finlay, Hist. Greece, 3, p. 114.

(٢) أودو، محارب قديم شارك في الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس لكنه جلب على نفسه سخط البابوية بسبب اعتدائه على ممتلكات دير كلوني، إلا أنه أعلن توبته وحمل الصليب وشارك في جيش ستيفن كونت بلوا.

Orderic Vitalis, Historia, 5 p. 325, Note 6؛ Cate, Crusade of 1101, pp. 349-350.

(3)Albert d'Aix, Historia, p. 575؛ Cate, Crusade of 1101, p. 358؛ Chalandon, Alexis Ier Conmene, p. 228.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٨.

(4)Albert d'Aix, Historia, pp. 574-575؛ Grousset, Croisades, I, p. 329؛ Chalandon, Alexis Ier Conmene, p. 228؛ Rousset, Croisades, p. 169.

العلاقة بين الجانبين البيزنطي والصليبي، خاصة وأن علاقته بوليم الثاني كانت على جانب من الود والصداقة؛ إذ يذكر ألبرت دي اكس:«أنه (وليم الثاني) كان يلتقي كل يوم بالإمبراطور الذي احتفى به وقدم له الكثير من الهدايا»[١]، وقد يكون السبب في ذلك أيضًا أن الكسيوس ربما علم من وليم الثاني أنه ينوي اللحاق باللمبارديين مما يعني أنه سوف يبعد بجيشه عن الأهداف البيزنطية، ومن ثم لم تكن هناك حاجة لقسم الولاء والتعهد، وربما يدل على ذلك أنه طلب هذا القسم من وليم التاسع دوق اكويتين – أقطانيا– الذي وصل إلى القسطنطينية بعد ذلك بقليل وأعلن أنه عازم على سلوك طريق الحملة الصليبية الأولى، فاستقبله الكسيوس بحفاوة رغم غطرسته وتكبره، وأغدق عليه وعلى رجاله الكثير من الهدايا وعاملهم كأبنائه، ووفر لهم الأسواق حتى استطاع أن ينتزع من وليم التاسع قسم الولاء وتعهُدًا بإعادة الأراضي التي قد يستولى عليها في آسيا الصغرى للإمبراطور البيزنطي، وفي المقابل زوده الكسيوس ببعض القوات لإرشاده في رحلته عبر آسيا الصغرى[٢].

وكذلك قدم الكسيوس المساعدة لكافة الفرق الصليبية التي قدمت إلى القسطنطينية بعد ذلك مباشرة، سواء كانت الألمانية أو الفرنسية والتحقت بهذه الحملة[٣].

مما سبق يتضح أن الكسيوس لم يضن بأي مساعدة أو نصيحة على قادة هذه الحملة خاصة بعد أن انتزع منهم قسم الولاء والتعهد بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، ورغم ذلك اتُّهم بأنه كان السبب فيما وقع لجيوشهم من إبادة في آسيا الصغرى، وأن سياسة اللين التي اتبعها معهم لم تكن سوى وسيلة لإخفاء نواياه السيئة

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 575.

(2)Ekkehard of Aura, Hierosolymita, p. 29؛ Albert d'Aix, Historia, p. 580؛Matthieu D'Edesse, Chronique, p. 242.

الرهاوي المجهول، الحملتين الأولى والثانية، ص٢٦.

Cate, Gay Crusade, pp. 517-518؛Chalandon, Alexis Ier Conmene, p. 229.

(3)Guibert of Nogent, Historia quae Dicitur Dei Per Francos, R.G.C.H.- Occ, 4, (Pairs 1879), p. 243.Brundage, Errant Crusader, p. 391؛ Grousset, ؛Croisades, I, p. 323.

تجاههم، وراح وليم الصوري يشبهه بالعقرب الذي لا يكمن السم في وجهه، وإنما في ذيله، فقد أجبر الصليبيين على عبور البسفور، وقدم لهم مرشدين خائنين ساروا بهم عبر دروب صحراوية وفي أراضي الأعداء، ولم يقدم لهم أي مؤن أو إمدادات رغم وعوده لهم، بل أرسل إلى السلاجقة يخبرهم بأعدادهم وبقرب وصولهم ويحرضهم على قتالهم[١]. بل وذكر أوردريك فيتاليس Orderic Vitalis أن السلاجقة أرسلوا إلى الكسيوس نصف الأموال والغنائم التي استولوا عليها بعد القضاء على هذه الجيوش، تنفيذًا لاتفاقه معهم، وتقديرًا منهم لتعاونه معهم[٢].

عند مناقشة هذه الاتهامات يتضح أن الكسيوس لم يكن له يد فيما نزل بهذه الحملة من كوارث في آسيا الصغرى، بل على النقيض من ذلك تمامًا، فقد أظهر لقادتها منذ البداية حسن النوايا، وقدم لجنودها يد العون والمساعدة رغم ما أحدثوه من سلب ونهب في أراضيه، خاصة من قبل اللومبارديين[٣]، وكذلك أتباع دوق اكويتين[٤]، ومع ذلك أخفى الرجل استياءه، وكان بارعًا وصبورًا في التعامل معهم، وأظهر لهم من الكرم والعطف أكثر مما يستحقون، محاولًا أن يحصل منهم على قسم الولاء وتجنيدهم لخدمة مصالحه في آسيا الصغرى[٥].

وإذا كان الكسيوس قد عمل على نقل اللومبارديين إلى آسيا الصغرى فقد كان مضطرًا لذلك أمام أحداث الشغب التي قاموا بها في ضواحي عاصمته[٦]، وخشية من

---

(1)Ekkehard of Aura, Hierosolymita, pp. 30-31؛ Guibert of Nogent, Historia, p. 234؛ Matthieu D'Edesse, Chronique, p. 241.

(2)Orderic Vitalis, Historia, 5, pp. 335,339.

(٣)لمزيد من التفاصيل:

Albert d'Aix, Historia, pp. 559-560؛ Cate, Crusade of 1101, pp. 352-353؛ Rousset, Croisades, p. 168.

(٤) لمزيد من التفاصيل:

Ekkehard of Aura, Hierosolymita, pp. 29-30؛ Albert d'Aix, Historia, pp. 579-580؛ Cate, Gay Crusader, p.517؛Grousset, Croisades, I, p. 330.

(5)Cate, Gay Crusader, p.520.

(٦) أقام اللومبارديون في معسكرهم خارج القسطنطينية لمدة شهرين، وظل الكسيوس يقدم لهم ما يحتاجون إليه دون أن يظهر نحوهم أي مضض، ولكن قابلوا إحسانه بالإساءة فطلب منهم العبور، وعندما حاول

تفاقم هذه الأحداث بما قد يؤدي إلى نتائج وخيمة على دولته، خاصة إذا تم انضمامهم إلى الجيوش القادمة، وهذه النقطة شكلت مكانًا بارزًا في إستراتيجية الكسيوس في تعامله مع الأمراء الصليبيين منذ الحملة الأولى، وهي العمل على عدم اتحاد جيشين أمام القسطنطينية، ولذلك كان يحاول جاهدًا إنهاء مفاوضاته مع كل قائد صليبي ليعبر إلى آسيا الصغرى قبل وصول الآخر؛ وذلك لتفادي أي خطر قد ينجم على دولته من التقائهما، وإدراكًا منه بصعوبة إمداد جيشين في آنٍ واحدٍ، وبالتالي فإن هذا الإجراء كان يشكل في جوهره تدبيرًا أمنيًا، وليس مجرد الدفع بالجيوش الصليبية إلى آسيا الصغرى بهدف القضاء عليها، أو بناء على اتفاق مسبق بينه وبين السلاجقة[1].

أما فيما يتعلق باتهام الكسيوس بتقديم مرشدين خائنين قادوا الصليبيين إلى أراضي صحراوية، وعدم تقديمه المؤن لهم في آسيا الصغرى، فإن اللومبارديين هم الذين اختاروا هذا الطريق الشاق بمحض إرادتهم، ورفضوا الطريق الذي نصحهم به الكسيوس[2]، وعلى الرغم من أن ذلك يعد انحرافًا عن الهدف الذي يخدم المصالح البيزنطية، فقد ظل الإمبراطور ملتزمًا بتعهداته لهم ووفر لهم الأسواق حتى وصلوا إلى مدينة أنقرة التي تنتهي عندها المنطقة التابعة للسيادة البيزنطية في آسيا الصغرى، لذلك لم يشتكِ اللومبارديون حتى وصولهم إلى هذه المدينة من أي نقص في الإمدادات، ومما يدل على عدم شعورهم بأي تقصير أو خيانة من جانب الكسيوس أنهم بمجرد الاستيلاء على أنقرة سلموها للقائد البيزنطي[3]، ولو أنهم شعروا بأن الكسيوس قد

=

إجبارهم على ذلك هاجموا القصر الإمبراطوري وقتلوا أحد أقارب الكسيوس وحيوان كانفي حديقة القصر، مما جعله يصر على نقلهم.

Albert d'Aix, Historia, pp. 561-562؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, pp. 331-333؛Cate, Crusade of 1101, p. 353؛ Riley-Smith, Crusades, p. 35؛ Norwich, Byzantium, p. 44.

(1)Finlay, Hist. Greece, 3, p. 113. Cate, Crusade of 1101, p. 520؛

(2)Cate, Crusade of 1101, p. 520.

(3) Albert d'Aix, Historia, p. 564؛ Richard, J. Histore des Croisades, (Fayard1996), p. 85؛ Fletcher, Making of Western, 2, p. 367؛ Lilie, Crusader State, p. 67.

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦٢.

تخلى عنهم ولم يلتزم باتفاقه معهم، لما التزموا باتفاقهم معه وسلموا له المدينة.

أما بالنسبة لوليم الثاني الذي عزم على اللحاق باللومبارديين فقد واصل طريقه إلى أنقرة، وعندها تراجع عن رأيه بمحض إرادته ودون تدخل من المرشدين، واتجه صوب قونية عبر طريق يخترق المنطقة السلجوقية، فقام السلاجقة بتدمير كل مصادر الماء والإمداد أمامه(١).

ولم تشر المصادر إلى خيانة من قبل المرشدين البيزنطيين له، بل جاءت الخيانة من قبل جماعة من الأدلاء المحليين المواليين للسلاجقة الذين استعان بهم بعد تدمير جيشه على يد السلاجقة ليرشدوه إلى أنطاكية(٢).

أما وليم التاسع الذي سلك طريق الحملة الصليبية الأولى، فقد بدأ زحفه من مدينة نيقية، وكانت هذه المنطقة عرضة بأكملها للهجوم السلجوقي، فبالرغم من إعادة فتح نيقية الذي تلى الحملة الصليبية الأولى، ومجهودات الكسيوس لطرد السلاجقة من الجزء الغربي لآسيا الصغرى، فإن منطقة بيثينيا ظلت تعاني من الهجمات السلجوقية الشديدة، كما أن القوات البيزنطية لم تستطع التوغل بعيدًا عن منطقة فريجيا لكثافة الوجود السلجوقي، علاوة على أن بعض المدن الواقعة على هذا الطريق مثل مدينة قونية سرعان ما استولى عليها السلاجقة بعد الحملة الصليبية الأولى(٣)، وبذلك لم يكن في مقدور المرشدين البيزنطيين حماية وليم التاسع من مخاطر هذا الطريق.

بالإضافة إلى ما سبق يمكن القول: بأنه لم يكن من مصلحة الكسيوس القضاء على صليبي هذه الحملة، حقيقة أن وصولهم أدى إلى انزعاجه خاصة بعد توتر علاقته مع أمراء الحملة الصليبية الأولى بعد رفضهم تسليم أنطاكية له(٤)، وإقامتهم إمارات صليبية مستقلة في الشرق لا تدين بالولاء له، إلا أن هذا لا يعني أن يصل به الحد إلى

---

(١) ستناقش الخطط السلجوقية لتدمير الصليبيين في آسيا الصغرى في الفصل الثالث.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 578؛Grousset, Croisades, I, p. 330؛ Rousset, Croisades, p. 169.

(3)Vryonis, Decline, pp. 147-148.

محمد الوسيمي، علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية، ص١١٣.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول استيلاء الصليبيون على أنطاكية وأثر ذلك على العلاقات البيزنطية الصليبية: عامرة الحمد، الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيون، ص٩٦-١١٣.

الاتفاق مع السلاجقة ضدهم، فالرجل منذ البداية أخذ يحاول جاهدًا تحقيق بعض المكاسب من ورائهم، وكانت مفاوضاته معهم وقسم الولاء الذي أخذه منهم، والنفقات والهدايا التي أغدقها عليهم كلها تؤكد رغبته في الانتفاع بهم في آسيا الصغرى وبذلك يمكن الرد على رواية أوردريك فيتاليس الذي اتهم فيها الكسيوس بأنه أراد الانتقام من صليبي هذه الحملة، واتفق مع ريموند كونت تولوز حول الطرق المناسبة للقضاء عليهم لما أنزلوه بعاصمته من نهب وتخريب[١]، بأن الكسيوس لم يكن ذلك الرجل الذي يحطم جهود حلفائه بسبب سوء تنظيمهم أو وقاحة بعضهم[٢]، بل إنه لم تكن لديه أي مصلحة من وراء خداعهم وتقديمهم فريسة سهلة للسلاجقة، بل على العكس، ربما عاد عليه ذلك بمزيد من الخسائر في آسيا الصغرى بعد انتصار السلاجقة عليهم[٣]، ومما يدل على ذلك تأثره لما وقع للجيش اللومباردي في آسيا الصغرى، ولومه لريموند كونت تولوز عندما عاد إلى القسطنطينية بسبب مغادرته الجيش وفراره من أمام السلاجقة، وكذلك استقباله للعائدين من آسيا الصغرى بعد هزيمتهم، وتعويضهم عن الخسائر التي لحقت بهم، ونقلهم على متن سفن بيزنطية إلى بلاد الشام عندما رغبوا في ذلك[٤].

مع ذلك فإن الأمر الجدير بالملاحظة، أن الكسيوس لم يقدم لصليبي هذه الحملة من العناية والمساعدات ما قدمه لصليبي الحملة الأولى في آسيا الصغرى، ويرجع ذلك إلى أنه لم يعد يثق بالصليبيين، كما أن هؤلاء قد أعلنوا-منذ البداية- عن نيتهم في عدم اتباع طريق الحملة الصليبية الأولى، وبالتالي ابتعدوا عن الطريق الذي يحقق مصالح الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، والأدهى من ذلك أن طريقهم الذي اتخذوه إنما هو من أجل تحرير بوهيموند عدو الكسيوس اللدود، والذي كان أسره فرصة سانحة

---

(1)Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 333.

(2)Cate, Crusade of 1101, pp. 366-367.

(3)Cate, Gay Crusader, p.520.

(4)Albert d'Aix, Historia, p. 575؛ Chalandon, Alexis Ier Comnene, p. 228.Cate, Crusade of 1101, p. 357؛ Grousset, Croisades, I, p. 328؛ Archer,Crusades, p. 106.

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦٣.

للإمبراطور لتحقيق بعض المكاسب في أنطاكية، وبالتالي لم يكن من مصلحة الكسيوس تقديم مساعدات جدية لهم والتي سيترتب عليها تحرير بوهيموند ليقوم بمحاربته بعد ذلك[1]، أو ليقاتلوا الدانشمنديين الذين أراد الكسيوس عدم التورط في قتال معهم، ودارت بينه وبينهم المفاوضات حول افتداء بوهيموند[2].

وربما يتساءل المرء لماذا لم يقدم الكسيوس المساعدة الكاملة لوليم التاسع، خاصة وأنه سلك الطريق الذي يحقق المصالح البيزنطية؟.

والإجابة على ذلك تكمن في أن الكسيوس ربما رأى أن ما حصل عليه هذا الأمير من مؤن استمر يجمعها طيلة خمسة أسابيع في القسطنطينية كان كافيًا له في رحلته عبر آسيا الصغرى، إلا أن هذه المؤن قد نفذت بمجرد وصول جيشه إلى قونية[3].

وربما لم يعلم الكسيوس بهذا الأمر فيرسل إليه المساعدات، وحتى لو علم فمن الواضح أنه لم يكن بمقدوره فعل شيء، خاصة وأن المسافة التي كانت تفصل بين وليم التاسع والسلاجقة-الذين قضوا على الجيش اللومباردي، وجيش وليم الثاني، ويستعدون للقضاء على جيشه- كانت صغيرة، وبالتالي لم يكن هناك أدنى أمل في إنقاذه من الوقوع في أيديهم، ومن ثم لم يكن ليجازف الإمبراطور بتقديم مساعدة لا فائدة منها.

على أي حال، مما سبق يمكن القول بأن الكسيوس لم يكن له يد فيما وقع لهذه الحملة في آسيا الصغرى، وإنما كان السبب الرئيسي في القضاء عليها هو اتحاد السلاجقة، وما اتخذوه من وسائل وإجراءات ضدها، لدرجة يمكن معها القول بأنه لو كان الكسيوس قد قدم أضعاف المساعدات التي قدمها لهذه الحملة، فإن فرصة نجاحها في اجتياز آسيا الصغرى في ذلك الوقت بالذات-الذي استعد فيه السلاجقة لمواجهتها، والانتقام لما حل بهم من هزيمة وطرد من أراضيهم على أيدي صليبيي الحملة الأولى- كانت ضعيفة للغاية.

---

(1)Oldenbourg, Crusades, p. 206..

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧.

(3)Albert d'Aix, Historia, pp. 580-581؛Cate, Crusade of 1101, p. 361؛Idem, Gay Crusader, pp. 513, 518.

سياسة مانويل كومنين تجاه الحملة الصليبية الثانية:

كانت قضية آسيا الصغرى واسترداد الأراضي البيزنطية التي استولى عليها السلاجقة إحدى الركائز الأساسية التي شكلت سياسة الإمبراطور مانويل كومنين، فلم يظهر هذا الإمبراطور أي تهاون أو تفريط في هذه القضية، إذ عمل منذ اللحظة الأولى لاعتلائه العرش على مواصلة سياسة أبيه يوحنا كومنين[١] وجده الكسيوس كومنين، في وضع حد للتوغل السلجوقي في آسيا الصغرى؛ إدراكًا منه بأنها تشكل العمود الفقري لقوة دولته[٢].

وكانت البداية عندما استغل السلاجقة وفاة الإمبراطور يوحنا وقام السلطان مسعود بن قليج أرسلان الأول (١١١٦-١١٥٦م) في العام التالي لوفاته بالهجوم على أراضي آسيا الصغرى، ووصل السلاجقة إلى منطقة ملاجنه Melagena[٣]، وبعد ذلك بقليل استولى السلاجقة على براكانا Pracana[٤]، ووصلوا بإغاراتهم إلى بيزيكاس Pithecas[٥]، مهددين الطرق التي تصل الدولة البيزنطية ببلاد الشام،

---

(١) شن يوحنا كومنين العديد من الحملات العسكرية ضد سلاجقة الروم من ناحية والدانشمنديين من ناحية أخرى في آسيا الصغرى، إلا أن الضغط السلجوقي ظل قائمًا على آسيا الصغرى، واتهم هذا الإمبراطور بأنه اكتفى فقط بالشريط الساحلي وترك السلاجقة في قلب آسيا الصغرى.

لمزيد من التفاصيل:

عبد الحفيظ محمد علي، المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين ٣-٦هـ/٩-١٢م، (القاهرة ١٩٨٢)، ص١٣٨-١٦٤؛ علي المحيميد، الدانشمنديون، ص٢١٥.

Vryonis, Decline, p. 119.

(٢) محمد الوسيمي، علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية، ص١٣٥.

(٣) ملاجنة، منطقة في بيثينيا تقع في وادي نهر سنجاريوس الأوسط، وهي محطة هامة على الطريق المؤدي إلى ضورووليوم.

Ramsay, Historical Geography, pp. 202-204؛ O.D.B., 2, p. 1274.

(٤) براكانا، حلت محل ديوقيصرية Dio-Caesreia، في إقليم ايزوريا Isauria، وتقع أسفل وادي نهر كاليكادنوس Calycadnus بين مدينتي كلوديوبوليس وسلوقية.

Ramsay, Historical Geography, pp. 310,364.

(٥) بيزيكاس، تقع في وادي نهر كايستر Cayster غرب آسيا الصغرى.

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, pp. 105-111.

واجتاحوا ثغر تراقسيان (تراقسيون Thracesion)[1].

من هنا رأى مانويل ضرورة توجيه ضربة قاصمة لمسعود بن قليج أرسلان الأول فخرج على رأس جيش كبير في صيف (٥٤١هـ/١١٤٦م)، متجهًا نحو عاصمته قونية، وأنزل بالسلاجقة عدة هزائم، وتقدم حتى وصل على مقربة منها، ودارت رحى المعركة بين قواته والقوات السلجوقية تكبد فيها البيزنطيين الكثير من الخسائر، إلا أنها انتهت بانتصارهم وانسحاب مسعود داخل عاصمته، وبدلًا من أن يتقدم مانويل ويحاصر قونية قرر الانسحاب حيث وصلته أخبار عن احتشاد حملة صليبية جديدة في الغرب الأوربي[2].

---

(١) ثغرتراقسيان، يقع غرب آسيا الصغرى شمال نهر الميأندر، ويعد من الثغور الرئيسية في آسيا الصغرى، ويتألف من المناطق الأيجية الغنية لإقليمي ايونيا وليديا مع أجزاء من فريجيا وكريا.

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, pp. 111,423؛ O.D.B., 3, p. 2080.

السيدالباز، أجناد الروم، ص٧، ١٠، ٢٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن حملة مانويل ضد السلاجقة:

Kinnamos, Deeds, pp. 39-51؛Choniates, Annales, pp. 31-32.

– هي الحملة الصليبية الثانية، وجاءت رد فعل على سقوط إمارة الرها الصليبية على يد عماد الدين زنكي لما كان لهذه الإمارة من أهمية دينية وإستراتيجية بالنسبة للصليبيين، فضلاً عن أنها أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق وجاء سقوطها إيذانا بانهيار البناء الذي أقامه الصليبيون طيلة نصف قرن من الزمان، وتولى قيادة هذه الحملة اثنين من أكبر ملوك أوربا وهما كونراد الثالث ملك ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا.

لمزيد من التفاصيل:

Chronico Mauriniacensi, (eds.), Bouquet, M. & Others, R.H.G.F., 12 (Pairs 1877), p. 88؛ Chronico Ecclesiae Santi Dionysii (eds), Bouquet M. & Others R.H.G.G., 12, (Paris 1877), p. 215؛ William of Newburgh, The History of English Affairs, English Trans. Walsh, p. G. & Kennedy, M.J., I, (London 1988), pp. 85؛ Gibb, H.A.R., "Zengi and The Fall of Edessa", in: Stton, K.M. & Baldwin, M.W. (eds), A History of the Crusades, I, (Philadelphia 1955), pp. 449-462.

علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، (القاهرة ١٩٧٥)، ص٢٩٥-٣١٢.

مسفر بن عريج الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر (٤٩١-٥٦٩هـ/ ١٠٩٧-١١٧٣م)، (جده ١٩٨٦)، ص٢٤٧-٢٤٨.

على هذا النحو أعاق وصول الحملة الصليبية الثانية مانويل عن مواصلة سياسته الهجومية ضد سلاجقة الروم، فهل فكر مانويل في الحصول على مساعدة قادة هذه الحملة ضد السلاجقة، وتعويض ما خسره بسبب قدومهم، خاصة وأن قائدي هذه الحملة لم يكونا أمراء مثل قادة الحملة الصليبية الأولى، وإنما ملوك ترتفع مكانتهم عن تأدية القسم له، أم أنه لم يفكر في هذا الأمر على الإطلاق؟.

بدأت علاقات مانويل بالحملة الصليبية الثانية عند اقتراب الملك الألماني كونراد الثالث من الأراضي البيزنطية، حيث أرسل إليه سفارة بيزنطية قابلته في شعبان سنة (٥٤٢هـ/ يوليو ١١٤٧م)؛ لمعرفة نوايا الألمان والتفاوض مع الملك الألماني حول شروط عبور جيشه الأراضي البيزنطية، وطالبت هذه السفارة كونراد الثالث بالتعهد بعدم القيام بأي أعمال عدوانية أثناء عبور جيشه الأراضي البيزنطية، وفي مقابل ذلك سوف يعامل كصديق ويتمتع بكرم الضيافة، وبعد أن تشاور كونراد الثالث وقادته حول هذه الشروط أقسم كبار قادة الجيش الألماني بأنهم لم يأتوا لإيذاء البيزنطيين، وإنما جاءوا لقتال الأتراك، فوافق الرسل على هذا التأكيد ووعدوا بتوفير المؤن للجيش الألماني على طول الطريق[1].

ووفقًا لهذا فإن هذه السفارة لم تطلب من كونراد الثالث الطلب الخاص بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى مقابل تقديم المساعدة للألمان، في حين أنها سوف تطلب هذا الطلب من لويس السابع، الأمر الذي يثير تساؤل هام وهو: هل اختلف موقف مانويل من قائدي الحملة الصليبية؟، وإذا كان الأمر كذلك فما هو سبب هذا الاختلاف؟، أم أن موقفه كان واحدًا من الطرفين؟.

يرى لايلي Lilie أن هناك اختلاف في مطالب السفارة البيزنطية من الملكين، ويفسر هذا الاختلاف في ضوء اختلاف العلاقات البيزنطية مع كل من ألمانيا وفرنسا، فكونراد الثالث كان حليفًا لمانويل ضد النورمان، وإذا كانت مشاركته في الحملة الصليبية قد أضعفت فرصة مانويل في الاستفادة من هذا التحالف، إلا أنها لم تكن

(1)Kinnamos, Deeds, pp. 58-59؛ Choniates, Annales, p. 36؛ Helmold, The Chronicle of The Salavs, English Trans, Tschan, F.J., (New York 1935), pp. 172-173؛ Brundage, Crusades, P. 105.

سوى حادث عرضي مؤقت، سرعان ما تعود العلاقات بعده بين الجانبين على ما كانت عليه من الود والصداقة.

هذا بالإضافة إلى أن مانويل كان متزوجًا من برتا سالزباخ Bertha Sulzbach شقيقة زوج كونراد الثالث؛ ولذا كان مانويل معتدلًا في مطالبه مع الملك الألماني على عكس الملك الفرنسي الذي كان متشددًا معه[١]، بينما تضيف ريلي سميث Riley-Smith أن مانويل لم يشعر بالقلق أو الشك في نوايا كونراد الثالث أو من مشاركته في الحملة الصليبية مثلما كان يشك في لويس السابع؛ ولذلك لم يطلب منه هذا الطلب[٢].

بيد أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته هو أن اشتراك كونراد الثالث في الحملة الصليبية يُعَد خروجًا صريحًا على شروط التحالف بين الجانبين، الذي كان موجهًا أساسًاضد روجر الثاني Roger IIالنورماني، وبناء عليه كان على الملك الألماني الدفاع عن ممتلكات الدولة البيزنطية في الغرب الأوربي ضد أطماع روجر الثاني، إلا أن اشتراكه في الحملة الصليبية جاء مخيبًا لطموحات مانويل، كما أن غيابه بعيدًا عن مسرح الأحداث في الغرب الأوربي سيعطي الفرصة لروجر الثاني لتحقيق خططه في الهجوم على الممتلكات البيزنطية[٣]، الأمر الذي أدَّى إلى انزعاج مانويل ونظره الى مشاركة كونراد الثالث في الحملة الصليبية دليلاً على إنهاء التحالف البيزنطي الألماني[٤].

---

(1)Lilie, Crusader States, pp. 151-152؛ (Riley- Smith, Crusades, p. 99).

(2)Riley- Smith, Crusades, p. 99.

(٣) لقد حدث هذا بالفعل حيث استغل روجر الثاني فرصة رحيل كونراد الثالث إلى الشرق وانشغال مانويل بأمر الحملة الصليبية الثانية، وهاجم سواحل الدولة البيزنطية واستولى على جزر كورفو وكيفالونيا ونهب كورنثه وايوبيا وطيبة.

لمزيد من التفاصيل:

Otto of Freising, The Deeds of Frederick Barbarossa, English Trans. Miero, ch., (Columbia 1966), pp. 69-70؛ Choniates, Annales, pp. 43-45؛Curtis, E., Roger of Sicily and The Norman in Lower Italy 1016-1154, (London 1912), p. 227؛ Berry, V.G., "The Second Crusade", in: Setton, K.M.,& Baldwin, M.W. (eds), A History of the Crusades, I, (Philadelphia 1955), p. 486.

(4)Vasiliev, Byz. Empire, 2, pp. 419-420؛Ostrogorsky, Byz. State, p. 339؛Berry, Second Crusade, p. 484.

ثم جاءت بعد ذلك مسيرة الجيش الألماني عبر الأراضي البيزنطية التي كانت لا تمت بصلة لشروط أي تحالف لتؤكد هذا الشعور لدى مانويل، فما كان يتسم به هذا الجيش من فوضى وما ارتكبه من حوادث سلب ونهب وتخريب والتي بلغت ذروتها عند مدينتي فيلوبوليس وأدريانوبل[١]، قد زادت من حدة التوتر بين مانويل وكونراد الثالث وأكدت شكوك مانويل في الألمان[٢].

هذا بالإضافة إلى أن تصرفات كونراد الثالث نفسه الذي رفض نصيحة مانويل بعبور مضيق الدردنيل من سيستوس Sestos[٣]وعدم الذهاب بطريق القسطنطينية متحديًّا بذلك ومتجاهلاً تحذير مانويل-الذي أعلن رأيه في اعتبار قدوم الملك الألماني إلى القسطنطينية عملاً عدائيًا- وطلبه من الإمبراطور أن يخرج من القسطنطينية؛ لاستقباله خارج أسوار عاصمته قد زاد من هوة الخلاف بين الجانبين[٤].

ولعل خير دليل على سوء العلاقات بين مانويل وكونراد الثالث ما كانت تحمله خطابات الإمبراطور البيزنطي للملك الألماني عندما جاء إلى القسطنطينية من عبارات لا تتسم بأي ود أو صداقة أو حتى مراعاة لأبسط قواعد الدبلوماسية، وإنما كانت تتصف بالتعالي عليه والسخرية منه ومن جيشه والتحذير له[٥].

=

أسمت غنيم، العلاقات البيزنطية الألمانية، ص٢٢-٢٣.

(١) لمزيد من التفاصيل عن حوادث عنف الألمان في الأراضي البيزنطية:

Kinnamos, Deeds, P. 61؛ Odo of Deuil, De Profectione, p. 43؛ Choniates, Annales, 37؛ Pernoud, R., The Crusades, (London 1962), pp. 130-131؛ Archer, Crusades, p. 212.

(2)Magdalino, P.,The Empire of Manuel I Komnenos 1143-1180, (Cambridge, 1997), p. 48.

(٣) سيستوس، مدينة على الدردنيل وأقرب نقطة من ابيدوس.

Webster, Geographical Dictionary, p. 1100.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, p. 47؛ Kinnamos, Deeds, p. 63؛ Chalandon, Les Comnenes, Jean II et Manuel I Comnene, (Paris 1912), p. 272.

(٥) لمزيد من التفاصيل:

Kinnamos, Deeds, pp. 65-66.

أسمت غنيم، العلاقات البيزنطية الألمانية، ص٢٥.

أما فيما يتعلق بعدم شعور مانويل بأي قلق أو شك من مشاركة كونراد الثالث في الحملة الصليبية، فإن الواقع العملي كان على النقيض من ذلك، فيذكر المؤرخ نيقتاس الخونياتي، أن مانويل منذ أن علم بخبر مشاركة كونراد الثالث في الحملة الصليبية انتابه شعور من القلق والشك؛ لذا أمر بتقوية حصون وقلاع القسطنطينية، وترميم أسوارها وحشد القوات للدفاع عنها(١)، ومما يؤكد هذا الشك قصيدة كتبها الشاعر البيزنطي ماجنانيوس برودروموس Magnaneios Prodromosتوحي أبياتها بالشعور البيزنطي تجاه الألمان، ويتهم فيها الشاعر كونراد الثالث بالرغبة في الاستيلاء على القسطنطينية(٢).

مما سبق تتضح صورة العلاقة بين مانويل وكونراد الثالث، وأنه من الصعب تصور وجود تحالف أو صداقة بينهما، وإنما اتسمت العلاقة بين الطرفين بالعداء، وبذلك كان من الطبيعي ألا يتمسك مانويل ببقايا تحالف بات أثرًا واهيًا، وأن يطلب من الملك الألماني التعهد بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى مقابل ما سيقدمه لجيشه من مساعدات، فضلاً عن ذلك فإن الشواهد والأحداث منذ تولية مانويل العرش الإمبراطوري تظهر أنه كان عازمًا على استعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، فقد رحب في بداية عهده بالتحالف الألماني الذي سيخلصه من التهديد النورماني القابع على الضفة المواجهة له على البحر الأدرياتي، وبالتالي تتاح له الفرصة لتوجيه قواته إلى آسيا الصغرى لاستعادة السيادة البيزنطية فيها، وقام من أجل هذا الغرض بحملتين(٣).

ثم تأكدت هذه الرغبة في خطاب أرسله للبابا أيوجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥-١١٥٣م)، ردًا على خطاب البابا له الذي أخبره فيه بتشكيل حملة صليبية

---

(1)Choniates, Annales, p. 36؛ (Magdaliono Manuel I Komnenos, p. 48).

(٢) نقلاً عن:

عبد العزيز محمد عبد العزيز، العلاقات البيزنطية- اللاتينية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠، ص٣٥.

(٣) عبد العزيز محمد، العلاقات البيزنطية- اللاتينية، ص٢٦.

جديدة وطلب منه تقديم المساعدة لها أوضح له فيه استعداده لتقديم العون والمساعدة للصليبيين أثناء عبورهم أراضيه بشرط أن يتعهدوا له بألا ينزلوا أي ضرر بالأراضي البيزنطية وأن يعيدوا جميع المدن البيزنطية التي من المتوقع أن يستولوا عليها من السلاجقة(١).

كما أن مانويل سيطلب هذا التعهد من لويس السابع، دون أن يخشى إثارته أو تحالفه مع روجر الثاني ضده، خاصة وأنه علم بأمر المفاوضات التي كانت بين الطرفين قبل رحيل الفرنسيين للشرق(٢)، فربما يكون ذلك سبب يدفع لويس السابع عند وصوله إلى الشرق إلى مساندة ريموند دي بواتييه Raymond de Poitiers (١١٣٦-١١٤٩م) أمير أنطاكية وعم زوجته الملكة اليانور Elienor وبذلك يقضي على الانتصار الذي حققه الإمبراطور منذ قليل على ريموند(٣)، وعلى الرغم من أن سير القوات الفرنسية لم يصاحبه ما صاحب سير القوات الألمانية من حوادث عنف وإراقة دماء البيزنطيين(٤).

---

(1)Grumel, V., "Au Seuil de la IIe Croisade deux Lettres de Manuel Comnene Au Pope", R.E.B., 3 (1945), p. 147.

(2)Grousset, Croisades, 2, p. 266؛ Berry, Second Crusade, p. 470؛ Curtis, Roger of Sicily, p. 225.

- دارت هذه المفاوضات حول نقل القوات الصليبية على متن سفن نورمانية وتقديم كل مساعدة للحملة الصليبية، وكان يهدف روجر من وراء ذلك كسب لويس السابع إلى جواره ضد الدولة البيزنطية أو الحصول على مساعدته للاستيلاء على أنطاكية وليس تعاطفًا مع الصليبيين.

Curtis, Roger of Sicily, pp. 224-226؛ Grousset, Croisades, 2, p. 226؛ Sybel, Crusades, p. 59.

(٣) بعد الهزيمة التي أنزلها مانويل في بداية حكمه بالأمير ريموند ثم سقوط إمارة الرها على أيدي المسلمين بعد ذلك بقليل، أدرك ريموند صعوبة موقفه وأنه من المستحيل إنقاذ إمارته من هجوم المسلمين إلا بالحصول على مساعدة مانويل فاتجه إليه معتذرًا وأعلن خضوعه له.

Kinnamos, Deeds, pp. 36-37؛ Grousset, Croisades, 2, pp. 227-228.

سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص١١٠-١١١-١٦٨.

(4)Brehier, L., Les Croisades, (Paris 1928), p. 106؛ Magdalino, Manuel I Komnenos, p. 49.

بردج (انتوني)، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة/ أحمدغسان سبانو- نبيل الجيرودي، (دمشق ١٩٨٥)،

من هنا كان من باب أولى أن يطالب مانويل من كونراد الثالث التعهد بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، إذ لم يكن هناك ثمة دافع يجبر مانويل على استرضائه وعدم إثارته، وهو الذي وجه للتحالف معه صفعة قوية باشتراكه في الحملة الصليبية، فكان أقل شيء يمكن أن يفعله تجاه هذا الرجل الذي تخلى عن تعهداته، وقامت قواته بنهب الأراضي البيزنطية وإزهاق أرواح المواطنين البيزنطيين هو أن يتخذ من الإجراءات ما يضمن له الحفاظ على أمن وسلامة دولته، واسترداد ممتلكاته في آسيا الصغرى.

وعلى ذلك ليس من المستبعد أن يكون مانويل قد طلب التعهد بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى من كونراد الثالث، ربما لم يطلبه على لسان السفارة الأولى كما ذكر كيناموس؛ رغبة منه في عدم إثارة الملك الألماني في هذه المرحلة بفرض تعهدات والتزامات عليه، وهو له ما له من مكانة ووضع في الغرب الأوربي، ويقود جيش ضخم يعبر به الأراضي البيزنطية، أو أن يظهر نفسه بمظهر من يشك في كونراد الثالث ونواياه، خاصة وأنه لم يقم هو أو قواته حتى ذلك الوقت بأي عمل ضد الأراضي البيزنطية؛ لذا آثر مانويل الانتظار لما تسفر عنه الأيام من أحداث، ولكن عندما سار الجنود الألمان على هذا النحو وأصبح العداء واضحًا وصريحًا بين الجانبين، ولم يتوقف الألمان عن حوادث عنفهم حتى خارج أسوار القسطنطينية، والتي أدت إلى وقوع معركة بين الجانبين، هدد بعدها كونراد الثالث بحصار القسطنطينية[1].

كان لابد لمانويل عند ذلك أن يحدد علاقته مع هذا العدو الذي يعبر أراضيه، ومن ثم طلب منه هذا التعهد، ومما يدل على ذلك ما ذكره كيناموس نفسه بعد ذلك بقليل على لسان مانويل في رده على خطاب لكونراد الثالث بقوله: «إن الاتفاق السابق يحفظ لنا حقنا بأن أي أراضي سوف تسترجع من الجيران الأتراك فإن الرومان (البيزنطيين) سوف يملكونها دون صعوبة»[2]، فمن حديث مانويل هذا يستشف أنه كان هناك ثمة اتفاق قد تم بين الجانبين، أو على الأقل شيء مفهوم ضمني، أو موافقة من قبل كونراد

=

ص١٥٠.

(1)Kinnamos, Deeds, p. 66؛ Berry, Second Crusade, p. 486.

(2)Kinnamos, Deeds, p. 67.

الثالث بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، ومن ثم فإن مانويل -عندما توترت العلاقات بينهما- يؤكد له على بنود ذلك الاتفاق.

وربما يدل على حدوث مثل ذلك الاتفاق ما قدمه مانويل لكونراد الثالث من مساعدات، من سفن لعبور البسفور، ووعد بتقديم المرشدين والمؤن، بل وقيل إنه قام بتوزيع الأسلحة على الجمع الغفير من الحجاج الألمان الذين كانوا لا يمتلكون السلاح[1].

فهذا كله يدل على حدوث اتفاق ما بين الجانبين قدم فيه كونراد الثالث وعدًا بخدمة للإمبراطور البيزنطي، وفي المقابل قدم مانويل هذه المساعدات التي لم يكن ليقدمها لشخص أنهى تحالفه معه، وأساءت قواته إلى أراضيه، إلا بعد اعتذار الملك الألماني وتقديمه الضمانات الكافية لتصرفاته في المستقبل، ولم يكن ليقدمها تحت أي تأثير أو ضغط من شخص أو عامل خارجي[2].

لكن لماذا لم يذكر كيناموس الطلب الخاص بإعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى من جانب مانويل واكتفى فقط بطلب مرور القوات الألمانية بسلام عبر الأراضي البيزنطية؟.

إن الأمر الذي ينبغي ملاحظته، أن كيناموس لم يقتصر على عدم ذكر ذلك التعهد في المفاوضات مع كونراد الثالث فقط، بل لم يذكره أيضًا مع لويس السابع بالرغم من أن ذلك كان شيئًا معروفًا وأكده أودو، وليس من المستبعد أن يكون كيناموس قد تجاهل هذا الأمر عمدًا؛ نظرًا لعدائه للصليبيين ورغبة منه في إظهارهم بمظهر المعتدين بالرغم من أن الإمبراطور البيزنطي لم يكلفهم بأي شيء، ومما يؤكد موقفه العدائي تجاه الصليبيين أنه جعل هدف هذه الحملة الصليبية الاستيلاء على الدولة البيزنطية، على الرغم من أن هدفها كان معروفًا وهو استرداد إمارة الرها الصليبية من أيدي

---

(1)Berry, Second Crusade, p. 486. Chalandon, Les Comnenes, p. 281؛

(٢) هناك من يرى أن أسباب تحسن العلاقات بين الطرفين والاتفاق بينهما كان بسبب تدخل زوجة مانويل برتاسالزباخ أو نتيجة لمعرفة مانويل باقتراب وصول الجيش الفرنسي بقيادة لويس السابع فخشي على عاصمته. صلاح محمد ضبيع، دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام ٥٤٠هـ/١١٤٥م إلى ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة أسيوط، ١٩٩٣، ص١٥٠-١٠٦.

المسلمين[1]. وربما يكون سبب ذلك أيضًا هو أن هذا التعهد كان شيئًا معروفًا وأساسيًّا في العلاقة بين الإمبراطور البيزنطي وأي قائد صليبي يعبر أراضيه منذ أن وطأت أقدام الصليبيين الأراضي البيزنطية، وبذلك لم يهتم كيناموس بذكره.

على أي حال، انتهى الأمر بعبور كونراد الثالث بجيشه البسفور إلى آسيا الصغرى، وبذلك تفرغ مانويل للتعامل مع الملك الفرنسي وجيشه، ويبدو أن مانويل قد أيقن من خلال تجربته السابقة مع كونراد الثالث أن عليه التشدد مع لويس السابع؛ لتحقيق مطالب ومصالح دولته في آسيا الصغرى؛ ولذلك فإنه بمجرد وصول الجيش الفرنسي إلى مدينة راتسبون Ratisbon[2] في **٢٩** يونيو، أرسل إليه سفارة تحمل رسالة منه احتوت على شرطين أساسيين لعبور الجيش الفرنسي الأراضي البيزنطية: أولهما: التعهد بعدم الاستيلاء على أي مدينة أو حصن في أراضيه، وثانيهما: التعهد بإعادة كافة الأراضي البيزنطية المتوقع استردادها في آسيا الصغرى والتي كانت فيما سبق تابعة للدولة البيزنطية، وأن يقسم النبلاء الفرنسيون على تنفيذ هذين الشرطين[3].

أدت هذه المطالب إلى حدوث نقاش عنيف داخل معسكر الجيش الفرنسي، ففي حين بدا الشرط الأول معقولًا للجميع نُظر إليه على أنه حق وضمان للبيزنطيين، رفض الجميع الشرط الثاني، فالحزب المعادي للدولة البيزنطية في الجيش الفرنسي وعلى رأسه جودفري دي لاروش Godfrey de la Roche أسقف لانجريه Langres، كان غير راغب في أن يستعيد مانويل المنطقة التي ربما يستردها الفرنسيون من السلاجقة دون أن يعوضهم عن ذلك، أما المعتدلون فكانوا أكثر كرمًا أو على الأقل أكثر

---

(1)Kinnamos, Deeds, p. 58.

– وفي هذا الصدد يقول كيناموس: "... وكل الغربيين قد رحلوا بدافع أنهم سيعبرون من أوربا إلى آسيا لقتال الأتراك في طريقهم واسترداد الكنيسة المقدسة في فلسطين والذهاب للأماكن المقدسة ولكن في الحقيقة جاءوا للاستيلاء على أراضي الرومان (البيزنطيين) بالقوة وتدمير كل شيء في طريقهم".

Kinnamos, Deeds, p. 58.

(٢) راتسبون، مدينة تجارية هامة تقع غرب ألمانيا على نهر الدانوب.

Webster, Geographical Dictionary, p. 1008.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 27-29؛ Berry, Second Crusade, pp. 487-488؛Lilie, Crusader States, p. 154.

دبلوماسية، حيث ذكروا أنه لابد من أن يحدد مانويل أولًا المناطق التي يعتبرها ملكًا له ويطالب بإعادتها، وإلا فكيف يتعهدون برد شيء لا يعرفون حدوده[1].

وقد استمرت هذه المناقشات عدة أيام الأمر الذي أصاب السفراء بالقلق وحذروا الفرنسيين بأن الإمبراطور أمرهم بتدمير المؤن والإمدادات في طريقهم إذا ما عمدوا إلى المماطلة والتأخير؛ لأنه يعتبر ذلك دليلاً على العدوان وأنهم لم يأتوا ليمروا عبر أراضيه بسلام، إلا أنه في النهاية تم الاتفاق بين الجانبين، حيث أقسم بعض القادة نيابة عن لويس السابع بالمحافظة على أمن وسلامة الأراضي البيزنطية، وفي المقابل أكد السفراء بتوفير الأسواق والتبادل النقدي المناسب وكافة الامتيازات الأخرى، أما الشرط الثاني فقد وعدوا بمناقشته عندما يتقابل الملك مع الإمبراطور في القسطنطينية[2].

ويبدو أن الملك الفرنسي قد أجل البتَّ في هذا الموضوع حتى يصل إلى القسطنطينية بجيشه وبذلك يضع مانويل في وضع حرج يضطره إلى عدم المطالبة بهذا الشرط مرة أخرى[3]، فهل أدرك مانويل خطة الملك الفرنسي أم لم يدركها؟.

لاشك أن مانويل قد فطن إلى حيلة لويس السابع هذه، بل واستطاع أن يتعامل معه بمكر لا يقل عن دهائه، فلم يلمح لهذا الطلب لا من قريب أو من بعيد أثناء وجود الملك الفرنسي في القسطنطينية، بل على العكس من ذلك فقد عمل على طمأنته واسترضائه بكل وسيلة ممكنة، فبعث نخبة من كبار رجال دولته لاستقباله عند وصوله للقسطنطينية في ١٤ أكتوبر، واصطحبه هؤلاء إلى القصر الإمبراطوري وهناك استقبله مانويل بحفاوة بالغة، ولم يدخر جهدًا في إسعاده واصطحبه في جولة لزيارة آثار وكنائس القسطنطينية، وأقام له ولرجاله مأدبة فخمة وقدم له الكثير من الهدايا وانتهز فرصة احتفال الفرنسيين بعيد القديس دنى وأرسل لهم مجموعة مختارة من رجال الدين

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 29؛ Daly, W.M., "Christian Fraternity The Crusaders and The Security of Constantinople 1097-1204", M.S., 22 (1960), pp. 41-91.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, p. 29؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 290؛Daly, Christian Fraternity, p. 62.

(٣) عبد العزيز محمد، العلاقات البيزنطية- اللاتينية، ص٤١.

الذين نالت ترانيمهم إعجاب الفرنسيين[١]،بهذا الكرم وأكثر منه عامل مانويل لويس السابع ورجاله، الأمر الذي أدهش أودو وجعله لا يصدق هذه الحفاوة فقال: «مازلت أعتقد بأنهم (البيزنطيين) ما كانوا ليظهروا لنا هذا الكرم لو أن نواياهم كانت طيبة»[٢]، واستمر يقدم لهم كل احتياجاتهم، خاصة وأنه عرف بما كان يناقش داخل معسكر الجيش الفرنسي من الدعوة للهجوم على القسطنطينية[٣]، فبالرغم من أن لويس السابع قد رفض القيام بهذا العمل[٤] إلا أن مانويل ظل لا يأمن جانب الفرنسيين وانتظر حتى عبروا إلى آسيا الصغرى وزال ضغطهم عن عاصمته، وأصبحوا في حاجة لمساعدته، عند ذلك تقدم بشروطه لهم[٥]؛ حيث استغل الإمبراطور قيام بعض حوادث العنف نتيجة لقيام أحد الحجاج الفلمنكيين بالهجوم على مكاتب صرافي الأموال البيزنطيين، وقام بقطع المؤن عن الجيش الفرنسي، وبالرغم من أن لويس السابع أمر بإعدام ذلك

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 59-61؛ Kinnamos, Deeds, p. 69؛Angold, Byz. Empire, p. 166؛ Brehier, Croisades, p. 106.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٩.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, p. 67.

رأفت عبد الحميد، خيانة القضية الصليبية، ص١١٠.

(٣) رفع راية هذه الدعوة جودفري دي لاروش بمجرد أن سمع بأمر توقيع مانويل الهدنة مع السلاجقة وقبل دخول القسطنطينية، واستمر هذا الأمر يناقش أثناء وجود الجيش الفرنسي أمام أسوار القسطنطينية.

لمزيد من التفاصيل:

Odo of Deuil, De Profectione, pp. 59,69-73؛ Daly, Christian Fraternity, pp. 64-67؛ Berry, Second Crusade, p. 490؛ Lilie, Crusader States, pp. 154-155.

(٤) يرى لايلي أن لويس رفض اقتراح الهجوم على القسطنطينية ربما لأنه كان غير متأكد من نجاح هذا الهجوم حتى ولو بمساعدة الأسطول النورماني، ولكن هل من المعقول أن لويس السابع ذلك الرجل الورع الذي قام بحملته للتكفير عن ذنبه بحرق كنيسة فيتري Vitry وامتدح أودو تقواه، والذي لم يشغله صعوبات رحلته عن القيام بواجباته الدينية من صوم وصلاة واحتفال بالأعياد الدينية وزيارة الأماكن الدينية أن يرتكب هذه الجريمة ضد إخوانه!!

Lilie, Crusader States, pp. 155-156؛ Grabois, A, "The Crusade of King Louis VII: A Reconsideration", in: Edbury, p. W. (ed), Crusade and Settlement, (London 1985), pp. 96-98.

(5)Lilie, Crusader States, p. 154؛ Daly, Christian Fraternity, p. 63.

الرجل وأعاد الكثير من الأموال والبضائع المسروقة، إلا أن مانويل رفض إمداد الجيش باحتياجاته إلا بعد الموافقة على مطالبه،والتي اعترض عليها الكثير من أعضاء الجيش الفرنسي، وأمام هذا الاعتراض استمر مانويل في إيقاف الإمدادات عن الفرنسيين، وحاول إعاقة عبور القوات الفرنسية التي وصلت إلى عاصمته بطريق شمال إيطاليا، واستمر في سياسته حتى وافق لويس السابع على مطالبه، وتم اللقاء بينهما في ٢٦ أكتوبر، وتعهد الملك الفرنسي بعدم الاستيلاء على أي مدينة أو حصن كانت ضمن الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى، وأقسم النبلاء الفرنسيون على هذا التعهد، وفي المقابل وعد مانويل بإرسال اثنين أو ثلاثة من نبلائه؛ لإرشاد الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى، وإقامة سوق مناسب للجيش في كل مكان، وفي حالة عدم توافر المؤن كان من حق الفرنسيين نهب القلاع والمدن والحصول على احتياجاتهم دون الاستيلاء عليها(١).

على هذا النحو استطاع مانويل أن يحصل على تعهد من قائدي الحملة الصليبية الثانية بإعادة مايستوليان عليه من أراضي في آسيا الصغرى، ويعوض-إلى حد ما-ما لحق به من خسارة نتيجة لقدومها، في مقابل أن يقدم لقواتها المساعدة والعون فيما بقى من رحلتها، لكنه رغم ذلك اتُّهم بخيانة الصليبيين في آسيا الصغرى، وأنه كان السبب فيما واجههم من صعوبات وهزائم هناك، فقد حرض السلاجقة ضدهم، ثم سمح للقوات السلجوقية باختراق أراضيه للهجوم عليهم(٢).

في الواقع إن قدوم الحملة الصليبية الثانية وضع مانويل في موقف لا يحسد عليه، فبينما كانت الحملة الصليبية الأولى-إلى حد ما- استجابة لطلب بيزنطي، فإن هذه

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 77-79, 81-83؛ Chalandon, LesComnenes, pp. 302-304؛Daly, Christian Fraternity, pp. 67-68.

إسحاق عبيد، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين، (القاهرة ١٩٧٠،) ص٢٠٠-٢٠١.

(2)Choniates, Annales, p. 39؛ Roger of Hoveden, The History of England and The Others Countries of Europe from A.D. 732- to A.D. 1201, English Trans, Henry, T.R. I, (London 1853), p. 250؛Grousset, R., L'Epopee des Croisades, (Pairs 1939), p. 167.

الحملة لم يطلبها مانويل، ولم يكن في حاجة إلى قدومها، بل إنها أعاقته عن مواصلة سياسته ضد السلاجقة في آسيا الصغرى[١]، فضلاً عن أنها شكلت تهديدًا خطيرًا على علاقات الدولة البيزنطية في الغرب والشرق[٢]، وما سببته هذه الحملة لمانويل من ضيق وإزعاج؛ لما صاحب مرورها من حوادث عنف واضطراب، وقلق مانويل من أن يهاجم هؤلاء الصليبيون، خاصة الفرنسيون الذين زادت شكوك مانويل فيهم؛ حيث تزامن وصولهم أمام أسوار القسطنطينية مع هجوم روجر الثاني على السواحل البيزنطية وخشي مانويل أن يكون هناك تحالف بين الطرفين[٣].

ولكن هل وصل الحد بمانويل إلى التآمر مع السلاجقة ضد الصليبين وخيانتهم في آسيا الصغرى كما جرى اتهامه بذلك؟.

للإجابة على هذا السؤال لابد من تتبع موقف مانويل مع كل قائد من قائدي هذه الحملة على حده، وما قدمه لجيشه من مساعدات حتى يتم التعرف على علاقة مانويل بما حل لصليبي هذه الحملة من هزائم في آسيا الصغرى.

فبالنسبة لكونراد الثالث فإن كتاب الحوليات الألمان قد أشادوا بحسن معاملة مانويل له، ولم يشيروا إلى أي خيانة منه تجاه الصليبيين، ويأتي على رأس هؤلاء أوتو الفريزي-المعاصر والمشارك في هذه الحملة- الذي يرجع فشلها إلى آثامهم والعقاب الإلهي على أعمالهم، دون أن ينسب ذلك للإمبراطور البيزنطي أو يشير إليه بأي تقصير تجاه الصليبيين[٤].

وإذا كان شالندو يذكر أنه عندما كانت علاقة مانويل بكونراد الثالث سيئة دفع الإمبراطور السلاجقة إلى مهاجمته[٥]، فإن الأمر الذي ينبغي ملاحظته أن الملك الألماني هو الذي أعطى الفرصة للسلاجقة للهجوم على جيشه، وذلك عندما اختار الطريق

---

(1)Magdalino, Manuel I Komnenos, pp. 46-47.

(٢) لمزيد من التفاصيل:

Lilie, Crusader States, pp. 148-149.

(3)Lilie, Crusader States, p. 148. Curtis, Roger of Sicily, pp. 227-228؛

(4)Otto of Freising, Deeds of Frederick, pp. 79,81.

(5)Chalandon, Les Comnenes, p. 287.

الذي يمر بأراضيهم، فتذكر إحدى الحوليات أن مانويل عندما علم بقرار الملك الألماني باتخاذ الطريق البار بقونية تأثر بشدة وأرسل إليه وأخبره بالصعوبات التي ستواجهه لو اتخذ ذلك الطريق من وعورة التضاريس، والهجوم السلجوقي المستمر، وقلة المؤن، ونصحه بأن يسلك طريق الساحل الغربي ثم الجنوبي لآسيا الصغرى، وبذلك يظل داخل المنطقة البيزنطية حتى أنطاكية، إلا أن الملك الألماني لم يلتفت لهذه النصائح وسار على الطريق الذي اختاره(١).

وهل بعد أن سار كونراد الثالث عبر أراضي السلاجقة، مهددًا إياهم كانوا في حاجة لمانويل ليحرضهم على قتاله؟.

إضافة إلى ما سبق فإن سلوك مانويل مع كونراد الثالث في آسيا الصغرى لا يدل على أي رغبة منه في القضاء على الجيش الألماني بواسطة السلاجقة، فبالرغم من تجاهل الملك الألماني لنصيحة مانويل-الخاصة باختيار الطريق- فإن هذه الحولية تذكر أن الإمبراطور رغم ذلك ساعده بكل الطرق والوسائل قبل وبعد رحلته في آسيا الصغرى، ولم تذكر أي خيانة له، مع العلم بأن تقرير هذه الحولية يعتمد على روايات الألمان المحررين من الأسر البيزنطي، والذين شعروا بالمرارة تجاه الدولة البيزنطية، ولكن على الرغم من ذلك فإن أي منهم لم يلصق سبب نكبتهم في آسيا الصغرى بمانويل(٢).

وعندما كان كونراد الثالث في نيقية نصحه مانويل بإعادة المدنيين إلى الوطن حتى لا يشكلوا عبئًا على الجيش خاصة عند السير في أراضي جدباء، حيث قال له: «ولكن إذا كنتم مصرين على المضي قدمًا في مهمتكم هذه فاقبلوا نصيحتي واختاروا من جيشكم بعض الألوف ليسرعوا إلى محاربة أولئك الذين ينهبون كل يوم الشعب المسيحي، واتركوا الآخرين يعودون إلى ذويهم، فخيرًا لكم القضاء على العدو بنفر قليل متوكلين على الرب من أن تعرضوا أنفسكم للمخاطر معتمدين على أعدادكم»(٣).

---

(1)Annales Herbipolenses, p. 4؛ (Helmold, Chronicle, p. 174).

(2)Annales Herbipolenses, pp. 4-5؛ Constble, G., "The Second Crusade as seen by Contemporaries", T.9 (1953), p. 273.

(3)Annales Herbipolenses, pp. 5.

هكذا لم يكن مانويل مسئولًا عن الهزيمة التي أوقعها السلاجقة بجيش كونراد الثالث-الذي عبر أراضيهم- قرب ضورولیوم، ولم يكن بمقدوره السيطرة على السلاجقة الذين تغمرهم فرحة الانتصار من الهجوم على الألمان أثناء انسحابهم إلى نيقية، ومما يدل على عدم مسئولية مانويل خطاب أرسله كونراد إلى مستشاره ويبالد أف ستافلوت Wilbald of Stavelot بعد هزيمة ضورولیوم من القسطنطينية في سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م)، يروي له فيه ما وقع لجيشه في آسيا الصغرى، لكنه لم يذكر فيه أي شيء يدل على تقصير مانويل أو تآمره مع السلاجقة ضد الألمان في آسيا الصغرى، وإنما يشيد بحسن معاملته له، ورد فعله عندما علم بمرضه[١].

ولو شعر الملك الألماني بهذه الخيانة لما ذهب إلى القسطنطينية حيث استقبله مانويل بحفاوة، وبذل جهدًا كبيرًا في علاجه[٢]، وإذا فسر ذلك في ضوء الحالة السيئة التي كان عليها كونراد الثالث بعد هزيمته التي جعلته في أمسِّ الحاجة إلى مساعدة مانويل له، فبماذا يفسر تجديد التحالف الذي تم بعد ذلك بقليل بين الطرفين؟، فلو شعر الألمان بخيانة البيزنطيين لهم، وأنهم كانوا السبب في هزيمتهم في آسيا الصغرى، لما كانوا قد تغاضوا عن هذه الإهانة دون عقاب أو نقاش، ولما سمحوا لملكهم بأن يعقد مع مانويل معاهدة سالونيك في نفس العام[٣].

ومما يؤكد براءة مانويل مما وقع للجيش الألماني في آسيا الصغرى أن كونراد الثالث عندما التقى مع لويس السابع بعد ذلك عند نيقية وأخذ يقص له سوء حظه، وما وقع لجيشه من هزيمة على يد السلاجقة، لم يرجع ذلك إلى الإمبراطور البيزنطي، وإنما أرجعه إلى سلوك قواته وعصيانهم، وما اتسمت به مواقفه من غرور، وما ارتكبه من أخطاء[٤].

---

(1)Conrd III, Letter to Wilbald, in: R.H.G.F., 15, (Paris 1878), pp. 533-534.
انظر الملحق الأول.

(2)Annales Palidenses, p. 83؛ Annales Magdeburgenses, p. 188؛ Helmold,Chronicle, p.174؛ Angold, Byz. Empire, p. 166.

(3)Lilie, Crusader States, p. 160.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 99-101.

مما سبق يمكن القول: أن تصرفات مانويل تجاه كونراد الثالث لا تدل على أي عداء أو رغبة منه في القضاء على الجيش الألماني في آسيا الصغرى، فبالرغم مما ارتكبه الملك الألماني وقواته ضد الأراضي البيزنطية، إلا أنه بعد أن تم الاتفاق بين الجانبين قد أخلص مانويل في تقديم المساعدة والنصيحة له، فالمؤرخ أوتو الفريزي، وكذلك كونراد الثالث، والذي كان كل منهما في موقف المعرفة لم يشيرا إلى أي خيانة منه للألمان في آسيا الصغرى، وهذا ما أكده الكتاب الألمان الذين عاصروا أو كتبوا عن هذه الحملة(١).

أما فيما يتعلق بتآمر مانويل ضد لويس السابع وجيشه في آسيا الصغرى، ففي خطاب أرسله الملك الفرنسي من أنطاكية للأب شوجير Suger-مقدم دير القديس دني- يروي فيه استقبال مانويل له، وما وقع لجيشه من هجوم سلجوقي في آسيا الصغرى، يرجعه إما لمكر وخيانة الإمبراطور أو بسبب خطاياهم، فالإمبراطور من وجهة نظره غدر به؛ لأنه سمح للسلاجقة بالتوغل في أراضيه والهجوم على الفرنسيين، دون أن يذكر أن ذلك كان بإيعاز من مانويل أو أن يكون هناك تحالف بين السلاجقة والسكان البيزنطيين في آسيا الصغرى(٢).

ولكن هذا الاتهام يدل على أن لويس السابع كان على قدر كبير من عدم المعرفة بطبيعة الأمور؛ وذلك لأن الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى كانت دائمًا عرضة للهجوم السلجوقي، وعانى الأباطرة البيزنطيون أنفسهم من هذا الهجوم على جيوشهم، مثلما حدث لجيش مانويل أثناء انسحابه من حملته على قونية، وذكر كيناموس نفسه هذا الهجوم(٣).

ومما يدل على الهجوم السلجوقي المتواصل على مدن آسيا الصغرى، ما ذكره أودو نفسه من أن الكثير من مدن هذا الإقليم قد أصابتها هجمات السلاجقة بحالة من الفقر والدمار، الأمر الذي دفع العديد من سكانها إلى الرحيل عنها، ومن بقى بها من

---

(1)Constable, Second Crusade, p. 273.

(2)Louis VII, Letter to Suger, in R.H.G.F., 15 (Pairs 1878), pp. 495-496

انظر الملحق الثاني.

(3)Kinnamos, Deeds, pp. 52-56؛(Chalandon, Les Comnenes, pp. 311-313).

البيزنطيين أعادوا بنائها وقاموا بتحصينها بالأسوار والقلاع لحماية أنفسهم من السلاجقة الذين كانوا يتوغلون بحرية داخل الأراضي البيزنطية[١].

وبذلك يمكن القول: أن السلاجقة قاموا بالهجوم على الجيش الفرنسي دون إيعاز من مانويل أو تحالف مع السكان البيزنطيين، ولو كان قد حدث مثل هذا التحالف لذكره لويس السابع، ذلك أنه طول روايته لسير الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى وحتى وصوله إلى أضاليا لم يشر إلى البيزنطين وإنما إلى الهجوم السلجوقي فقط، وبهذا كان مانويل بعيدًا كل البعد عن الهجمات السلجوقية على الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى[٢].

على عكس ما ذكره أودو الذي اتهم السكان البيزنطيين في آسيا الصغرى بالانضمام إلى جانب السلاجقة في هجومهم على الجيش الفرنسي أثناء عبوره آسيا الصغرى، بل إنه يتهم بعض المدن البيزنطية في آسيا الصغرى بأنها قدمت مأوى للسلاجقة في هجومهم على الفرنسيين وذلك بإيعاز من مانويل والذي ربما لم يعلم بهذه الأحداث، وبذلك لم يكن مسئولًا عنها[٣].

ومما يدل على براءة مانويل من الهجوم السلجوقي على الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى ما قام به هذا الإمبراطور عندما وصل الفرنسيون إلى أفيسوس حيث أرسل إلى لويس السابع وأخبره بأن السلاجقة أعدوا جيشًا كبيرًاللقضاء على الفرنسيين، وأشار عليه أن يتجنب الاشتباك معهم، وطلب منهم اللجوء إلى الحصون البيزنطية الموجودة على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى، إلا أن الملك الفرنسي رفض قبول هذه النصيحة ورحل من أفيسوس لمواصلة رحلته عبر آسيا الصغرى دون أن يكلف نفسه حتى الرد عليه[٤].

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 107؛Chalandon, Les Comnenes, p. 306؛ Vryonis, Decline, pp.147-149-150 ؛ Idem, "Nomadization and Islamization in Asia Minor", D.O.P., 29(1975), p. 45؛ Foss, Defeneses of Asia Minor, p. 151.

(٢) انظر الملحق الثاني.

(3)Chalandon, Les Comnenes, p. 313.

- سيناقش دور كل مدينة وموقفها على حدة من السلاجقة في الفصل الرابع.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 107-108؛ Berry, Second Crusade, p. 497؛

بيد أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته أنه لم يكن في استطاعة مانويل في ذلك الوقت تقديم قوات عسكرية تصاحب الجيش الفرنسي، وتدافع عنه أثناء سيره في آسيا الصغرى؛ وذلك لتعرض الدولة البيزنطية في ذلك الوقت لتهديد روجر الثاني، فكيف يمكن لمانويل وهو في هذا الوضع الحرج أن يقدم للويس السابع قوات عسكرية هو في أشد الحاجة إليها للدفاع عن أراضيه؛ لذا لم تتلق هذه الحملة أي مساعدة عسكرية من الدولة البيزنطية(١).

أما ما تعرض له الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى من نقص الغذاء، فإن مانويل لم يكن مسئولًا عنه، إذ لم يحمل لويس السابع الإمبراطور البيزنطي أية مسئولية عن ذلك في خطابه إلى شوجير(٢)، فهذه الفترة لم تكن موسم حصاد في آسيا الصغرى، وتوقع مانويل ما كان يمكن أن يتعرض له الجيش الفرنسي من صعوبات نتيجة لذلك في الحصول على الطعام، ومن هنا أعطى للفرنسيين حق نهب المدن والقلاع التي تمتنع عن إمدادهم بالمؤن، وذكر أودو ذلك، وإذا كان لايلي يذكر أن مانويل قد اتخذ هذا الحق فيما بعد كسبب لقطع العلاقات مع الفرنسيين(٣)، فإنه يمكن القول بأن مانويل لم يتخذ هذه الخطوة إلا نتيجة لتمادي القوات الفرنسية في السلب والنهب لأقل الأسباب.

أما فيما يتعلق باتهام مانويل بأنه أرسل إلى السلاجقة وحرضهم على قتال الصليبيين، فليس من المعقول أن السلاجقة كانوا في حاجة لإثارة مانويل لهم حتى يقاتلوا الصليبيين الذين جاءوا لقتال إخوانهم المسلمين، فعلى الرغم من أنه لا يوجد تحالف بنيهم وبين مسلمي الشام، إلا أنهم كانوا على علم بما حل بهم على أيدي صليبي الحملة الأولى وتحالف أمرائها مع الكسيوس ضدهم، وما ترتب على ذلك من الاستيلاء على عاصمتهم وطردهم من مدن ومناطق عديدة في آسيا الصغرى، وكانوا يعلمون أن هذه الحملة جاءت لتقديم العون والمساعدة لصليبي الشرق والإنتقام لسقوط إمارة

=

Chalandon, Les Comnenes, p. 307؛ Mills, Crusades, I, p. 380.

(1)Hamilton, The Crusades, (London 1998), p. 36.

(٢) انظر الملحق الثاني.

(3)Lilie, Crusader States, p. 161.

الرها التي تقع خلف ممتلكاتهم، فإذا تركوا هذه الجيوش تصل إلى الشرق بكامل قواتها لاستطاعت الانتصار على مسلمي الشام وربما قامت بضربهم من الخلف، وتكون الكارثة أكبر إذا اتحدت هذه الجيوش مع البيزنطيين، وبذلك يقع السلاجقة بين شقي الرحى: البيزنطيين وصليبي الشرق[١]، ومن هنا كان لابد لهم من التصدي لهذه الحملة والعمل على إضعافها بكل وسيلة ممكنة.

ويبدو أن ما دفع الصليبيون إلى اتهام مانويل بأنه كان السبب في نكبتهم في آسيا الصغرى، هو أنهم قد صدموا بخبر صلحه مع السلاجقة، إذ كانوا يتوقعون أن يجدوه في حرب معهم[٢]، فلقد فهم هؤلاء الصلح مع السلاجقة على نحو مختلف تمامًا عما فهمه مانويل، فإذا كان الإمبراطور قد اعتبره حماية وتأمينًا لأراضيه من أي اعتداء سلجوقي أثناء انشغاله بعبور الصليبيين[٣]، اعتبره الصليبيون خيانة لهم وتآمرًا مع السلاجقة للإجهاز عليهم أثناء عبورهم آسيا الصغرى.

ولكن الأمر الذي ينبغي ملاحظته هو أن ذلك الصلح لم يكن موجهًا ضد الصليبيين بأي شكل من الأشكال، أو كان سببًا يجعل مانويل يقدم أي تنازلات للسلاجقة، أو يتآمر معهم على حساب الصليبيين وقضيتهم، وإنما كان هذا الصلح وسيلة اضطرته إليها قدوم الحملة الصليبية حتى يتفرغ لمراقبة الصليبيين داخل أراضيه، وتحسبًا لما قد يطرأ على الساحة الخارجية والمحلية من ظروف تؤثر على الدولة البيزنطية وسيادتها نتيجة لقدوم هذه الحملة.

على أي حال فإنه لم يكن من مصلحة الدولة البيزنطية أو من مصلحة حاكمها أن تفشل حملة صليبية من جراء فعل بيزنطي، إذ ستكون النتيجة الطبيعية لهذا الفشل هي قيام حملة صليبية جديدة للانتقام من الدولة البيزنطية[٤]، فضلاً عن ذلك فإن مانويل لم يكن بالسذاجة التي تجعله يعادي الصليبيين في الوقت الذي كان الغرب الأوربي ينظر

---

(١) محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م (الإسكندرية ١٩٩٨)، ص٨١-٨٢.

(2)Magdalino, Manuel I Komnenos, pp. 51-52.

(٣) إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص١٩١؛ سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص١٢٣، ١٤٠.

(٤) عبد العزيز محمد، العلاقات البيزنطية- اللاتينية، ص٤٩.

بعين الشك للدولة البيزنطية منذ دعاوى بوهيموند ضدها[١]، ليؤكد بذلك تهمة الخيانة بها وما سيترتب على ذلك من نتائج سيئة عليها.

مما سبق يمكن القول بأن اتهام مانويل بأنه السبب في هزيمة الحملة الصليبية الثانية بجيشيها في آسيا الصغرى ليس له أساس من الصحة؛ وذلك لأن هذه الهزيمة تعود إلى ما قام به السلاجقة من دور في القضاء عليها، وما تكبدته قواتها من خسائر فادحة على أيديهم في هذا الإقليم، بل إن معظم مصادر هذه الحملة تذكر أن عداء السلاجقة وهجومهم على الصليبيين هو أهم أسباب فشل الحملة الصليبية الثانية[٢].

موقف إسحاق الثاني أنجيلوس من جيش فردريك بربروسا:

إذا كانت آسيا الصغرى واستعادة الأراضي البيزنطية قد لعبت دورًا هامًا في سياسة الأباطرة البيزنطيين تجاه القادة الصليبيين منذ الحملة الصليبية الأولى، فإن الأوضاع قد اختلفت تمامًا عندما جاء جيش فردريك بربروسا[٣] ليعبر الأراضي البيزنطية، إذشهدت

---

(١) بعد إطلاق سراح بوهيموند وعودته إلى أنطاكية وحتى يهرب من الضغط البيزنطي على إمارته رحل إلى الغرب الأوربي لشن حملة ضد الدولة البيزنطية واتهمها بخيانة الصليبيين ونجح في حشد حملة ضخمة ضدها إلا أنها انتهت بالفشل.

لمزيد من التفاصيل:

عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية، ص١٧٣-١٨٣؛ نبيلة مقامي، العلاقات بين الدولة البيزنطية والنورمان، ص٨٥-٩٣.

(2)Constable, Second Crusade, p.273.

(٣) كان الإمبراطور فردريك بربروسا أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة التي جاءت للشرق كرد فعل لسقوط بيت المقدس في أيدي السلمين ٨٥٣هـ/١١٨٧م، مما دفع ملوك وأمراء الغرب الأوربي للقيام بهذه الحملة وشارك فيها إلى جانبه الملك الفرنسي فيليب أوغسطس (١١٨٠-١٢٢٣م) والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩-١١٩٩م)، واتبعا الطريق البحري، أما فردريك فقد اتخذ الطريق البري عبر الدولة البيزنطية وآسيا الصغرى.

Vinsovfs, Itinerary of Richard I, pp. 266-267؛ Otto of St. Blasien, The Third Crusade 1189-1190, in: Thatcher, O.J., & Mcneal, E.H. (eds), A Source Book for Mediaeval History, (America 1905), p. 531؛ Champdor, A., Saladin Le Plus pur Heros de L'Islam, (Paris 1965), pp. 201-205؛ Lamb, H., The Crusades, Iron Men & Saints, (New York 1942), pp. 266-267.

ابن ايبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق/ سعيد عبد

هذه الفترة انهيارًا كبيرًا لمكانة الدولة البيزنطية بصفة عامة، وتدهور نفوذها في آسيا الصغرى بصفة خاصة بعد معركة ميريوكيفالون التي قضت على آمال البيزنطيين في استعادة آسيا الصغرى من أيدي السلاجقة، ذلك الأمل الذي ظل الأباطرة البيزنطيون يكافحون من أجل تحقيقه مدة قرن من الزمان، فكانت هذه المعركة إيذانًا بانتهاء السيادة البيزنطية على آسيا الصغرى، التي كان ينظر إليها حتى ذلك الوقت على أنها أراضي بيزنطية تحت الاحتلال السلجوقي، فقد أصبحت وطنًا للسلاجقة[١].

وكان أن استغل السلطان السلجوقي قليج أرسلان الثاني ما وقع للجيش البيزنطي من هزيمة، وأرسل قواته للهجوم على منطقة وادي الميياندر غرب آسيا الصغرى، ونهب السلاجقة مدن ترالس Tralles[٢] وأنطاكية الفريجية Phrygian Antioch[٣] ولوما Louma وبنتاكير Pentachier[٤]، ونتيجة لضعف المقاومة البيزنطية وصل السلاجقة بهجماتهم إلى مدن ساحل بحر إيجة وتمكنوا من تدمير العديد منها[٥]، ومع استمرار الضغط السلجوقي على آسيا الصغرى قام مانويل بحملة لطرد السلاجقة من

=

الفتاح عاشور، (القاهرة ١٩٧٢)، ص٩٨-٩٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور الناصر صلاح الدين بن أيوب، (القاهرة ١٩٦٥)، ص٢٢١-٢٢٣؛ عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، (بيروت ١٩٦٦)، ص١٧٣-١٧٥.

(1)Savvides, A.G.C., Byzantium in the Near East: Its Relations With The Seljuks Sultanate of Rum in Asia Minor, The Armenians of Cilicia and The Mongols A.D.C. 1192-1237, (Thessalonica 1981), p. 40؛ Kafesoglu, Seljuks. P. 71.

(٢) ترالس، مدينة في ليديا على الجانب الشمالي لوادي الميياندر، وكانت تعد من أقوى الحصون في وادي نهر الميياندر.

Ramsay, Historical Geography, pp. 112-113؛ O.D.B., 3, p. 2103.

(٣) أنطاكية الفريجية، مدينة تقع جنوب الميياندر.

Choniates, Annales, p. 385, Note 526.

(٤) لوما وبنتاكير، تقعان على المجرى الأسفل لنهر الميياندر.

Ramsay, Historical Geography, p. 134.

(5)Choniates, Annales, pp. 108-109؛Vryonis, Decline, p. 126؛ Idem,Nomadization, p. 46؛Treadgold, Byz. State, p. 649.

عدة مناطق في غرب آسيا الصغرى انتهت بالفشل التام، ثم خرج مرة أخرى عندما حاصر السلاجقة مدينة كلوديوبوليس Claudiopolis[١]، وتمكن من رفع الحصار عنها وأنقذها من المجاعة التي تعرضت لها[٢].

بيد أن هذه المحاولات البيزنطية لم تستطع إخماد حدة الهجوم السلجوقي، ذلك أنه بمجرد أن علم قليج أرسلان الثاني بوفاة مانويل سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) خرج على رأس جيش كبير وقام بنهب مدن سوزوبوليس Sozopolis[٣]، وكوتاهيه Cotyeaum[٤]، وحاصر أضاليا، وأجبر العديد من المدن على الخضوع له[٥].

ومهما يكن من أمر، فقد شهدت الفترة التي أعقبت وفاة مانويل انهيار السلطة المركزية في الولايات البيزنطية المتبقية في آسيا الصغرى، وازدياد نشاط القبائل التركمانية خاصة في عهد الإمبراطور أندرنيقوس الأول كومنين Andronikos I komnenos(١١٨٣-١١٨٥م)[٦]، الذي أضحت آسيا الصغرى في عهده مسرحًا للفوضى والاضطراب، واندلعت ضده العديد من الثورات وحركات التمرد، وطلب هؤلاء المتمردون المساعدة السلجوقية، فاستغل السلاجقة هذه الفرصة واستولوا على العديد من المدن في آسيا الصغرى، ففي العام التالي لتولية أندرنيقوس العرش

---

(١) كلوديوبوليس، تعد هذه المدينة ضمن إقليم فريجيا.

محمد الوسيمي، علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية، ص٢١١.

(2)Vryonis, Decline, p. 126. Choniates, Annales, pp. 109-112؛

(٣) سوزوبوليس، مدينة في إقليم بامفيليا جنوب غرب آسيا الصغرى، استولى السلاجقة عليها بعد مانزيكرت واستردها يوحنا كومنين.

Ramsay, Historical Geography, pp. 400-401؛ O.D.B.,3, p. 1933.

(٤) كوتاهيه، مدينة كبيرة في فريجيا احتلت مكانة مميزة وكانت لها تحصينات قوية، إذ كان بها ٧٠ برجًا عدا الأسوار المزدوجة.

Ramsay, Historical Geography, pp. 94, 144, 201؛ O.D.B.,3, p. 1154.

(5)Choniates, Annales, p. 146؛ Vryonis, Decline, p. 127؛ Treadgold, Byz. State, p. 651؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 71.

(٦) اندرنيقوس الأول كومنين، هو ابن اسحاق شقيق يوحنا كومنين، نشأ وترعرع مع مانويل، وحكم بونتس Pontos، ثم اعتلى بعد ذلك العرش الإمبراطوري وساءت أوضاع الدولة البيزنطية في عهده سواء في الداخل أو في الخارج.

O.D.B., I, 94.

الإمبراطوري وصلت الهجمات السلجوقية إلى بحر إيجة واستولى السلاجقة على حوالي ٧٠ حصنًا[١].

وقد زادت الأوضاع سوءًا في عهد إسحاق الثاني أنجيلوس، واستغل قليج أرسلان الثاني هذه الفرصة وأرسل قواته للهجوم على آسيا الصغرى، وبدأت هذه القوات أعمالها بالهجوم على ثغر تراقسيان، ووصلت إلى منطقة سهل كيلبيانوس Celbianos[٢]التي وجدتها خالية من القوات البيزنطية للدفاع عنها، فقامت بأسر الكثير من سكانها، واضطر هذا الإمبراطور إلى دفع ضريبة سنوية للسلطان السلجوقي[٣].

على هذا النحو، كان النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى عندما وصل جيش فردريك إلى الأراضي البيزنطية، فهل فكر إسحاق في أن يطلب من فردريك قسم الولاء له والتعهد بالمساعدة في استعادة السيادة البيزنطية على آسيا الصغرى، مثلما فعل أسلافه الأباطرة البيزنطيون تجاه القادة الصليبيين الذين عبروا أراضيهم؟، أم أن العاهل البيزنطي اعتبر أن آسيا الصغرى أصبحت أراضي سلجوقية ولم يعد هناك أي أمل في استردادها؟.

إذا كان البعض يرى أن أسرة أنجيلوس لم يتوفر لها ما توفر لأسرة كومنين من الفهم والإدراك السياسي للاستفادة من الصليبين في تحقيق أهدافهم في آسيا الصغرى[٤]، فإن الواقع كان يختلف تمامًا عن ذلك، حيث أن آسيا الصغرى لم تعد تمثل-في هذه الفترة- ما كانت تمثله من أهمية لدى أباطرة أسرة كومنين بعد أن خضع معظمها لحكم السلاجقة، وما بقى منها وقع تحت وطأة الضغط السلجوقي، ويعج بحركات التمرد والعصيان ضد الأباطرة البيزنطيين، هذا بالإضافة إلى أن إهمال

---

(1)Vryonis, Decline, pp. 126-127؛ Savvides, Byzantium in The Near East, p.54؛ Anglod, Byz. Empire, p. 275؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 71؛ Cahen, pre-Ottoman Turkey, p. 106.

(٢) سهل كيلبيانوس، هو الجزء الأعلى من وادي نهر كايستر الذي يسمى الميياندر الأعلى.

Ramsy, Historical Geography, pp. 114-115.

محمد الوسيمي، علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية، ص١١٩.

(3)Choniates, Annales, p. 203؛ Vryonis, Decline, p. 127؛ Kafesoglu, Seljuks,p. 71؛Treadgold, Byz. State, p. 656.

(٤) السيد الباز العريني، الحروب الصليبية، ج١، ص٧٣.

إسحاق أنجيلوس لأوضاع آسيا الصغرى زاد الموقف سوءًا، إذ قام حكام المدن البيزنطية الشبه مستقلين في آسيا الصغرى بسلب القرى السلجوقية المجاورة لهم، فقام السلاجقة عند ذلك بالإنتقام منهم بنفس الطريقة، حيث استولوا على العديد من المواقع البيزنطية وقاموا بتدميرها، الأمر الذي أصاب أجزاء واسعة من آسيا الصغرى بالخراب والدمار، وبهذا لم تعد هناك فائدة ترجى من استعادة هذه المناطق المخربة أو المناطق التي تشتعل بالثورات ضد الدولة البيزنطية، وتحول فكر إسحاق عن آسيا الصغرى، وأصبحت قضية استرداد أراضيها لا تشغل له بال.

على أن الأمر الملفت للنظر أنه في حالة افتراض أن إسحاق كان قد فكر في الحصول على مساعدة فردريك في تحقيق بعض المكاسب أو الحصول على مساعدته في آسيا الصغرى، فإنه لم يكن في مقدوره أن يطلب من الإمبراطور فردريك أن يؤدي قسم الولاء والإخلاص له، وهو الذي يعتبر نفسه أسمى مكانة من الإمبراطور البيزنطي، بل إنه هو الإمبراطور الوحيد للعالم المسيحي، ثم كيف يمكن أن يطلب من فردريك أن يتعهد بخدمة المصالح البيزنطية في آسيا الصغرى، وهو يكن لهذه الدولة كراهية شديدة منذ أن وطأت أقدامه أراضيها أثناء الحملة الصليبية الثانية، ورحل ناقمًا عليها لموقف إمبراطورها السلبي-من وجهة نظره- من هذه الحملة، ثم ما قام به من تحريض قليج أرسلان الثاني على قتال مانويل وتقديم المساعدة له في معركة ميريوكيفالون التي انتهت بهزيمة الإمبراطور البيزنطي وتحطيم قواته[1].

---

(١) هسى، العالم البيزنطي، ص١٦٨؛ عادل عبد الحافظ، العلاقات السياسية، ص١٢٩-١٣٠.

- تعود العلاقات الألمانية السلجوقية إلى وقت مبكر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م عندما أرسل فردريك إلى قليج أرسلان الثاني وحثه على مهاجمة الأراضي البيزنطية فرد السلطان السلجوقي بسفارة محملة بالهدايا وطلب من فردريك يد ابنته لابنه، ثم قدم فردريك المساعدات العسكرية له في معركة ميريوكيفالون، واستمرت علاقات الصداقة بين الطرفين.

Cahen C., "Selgukides, Turcomans et Allemands Au Temps de la Troisieme Croisade", W.Z.K.M., 56 (1960), p. 26؛ Idem, "The Turks in Iran and Anatolia Before the Mongol Invasion", in: Setton, K.M.& Baldwin, M.W. (eds) A History of the Crusades, 2, (Philadephia 1962), p.680؛ Brand, Ch., Byzantium Confronts The West 1180-1204, (Cambridge 1968), p. 18.

إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص٢٦٨.

يضاف إلى ذلك ما قام به فردريك من عقد صلح البندقية سنة(٥٧٣هـ/١١٧٧م) مع البابوية الحليف الدبلوماسي للدولة البيزنطية[١]، وتحالفه أيضًا مع النورمان العدو التقليدي للدولة البيزنطية[٢]، الأمر الذي أدى إلى استياء إسحاق من فردريك وجيشه، وزاد من حدة ذلك علاقات الصداقة بين إسحاق وصلاح الدين الأيوبي الذي تبادل معه مؤخرًا الرسائل ووعده بإعاقة تقدم جيش فردريك في أراضيه[٣].

لهذا كله كان العداء هو الموقف السائد تجاه جيش فردريك أثناء مروره بالأراضي البيزنطية، فإذا كان الأباطرة البيزنطيون فيما سبق استقبلوا قادة الجيوش الصليبية بالترحاب وقدموا لهم المساعدات، وتغاضوا عن تكبر وعجرفة البعض وإساءة ووقاحة البعض الآخر، فقد كان ذلك من أجل خدمة مصالحهم في آسيا الصغرى، أما الآن فلم تعد لهم أية مصلحة من وراء مساندة الجيش الصليبي، بل وكان لدى إسحاق من الأسباب والمبررات الكافية ما يجعله يعوق عبور الصليبيين في أراضيه، ولذا بذل هذا الإمبراطور كل ما في وسعه من جهد وحاول بكل وسيلة إعاقة عبور جيش فردريك[٤].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الصلح:

Munz, P., Frederick Barbarossa: A Study in Medieval Politices, (London 1969), pp. 329-331.

سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج١، (القاهرة ١٩٩١)، ص٣٨٣-٣٨٤؛ إسحاق عبيد، روما بيزنطة، ص٢٦٩.

(٢) حسنين ربيع، الدولة البيزنطية، ص٢٤٤-٢٤٥.

حامد زيان غانم، الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، (القاهرة ١٩٧٧)، ص٢٨-٣٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل ج١٠، ص١٩٣؛ابن واصل، مفرح الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢ عصر صلاح الدين ٥٦٩-٥٨٩هـ= ١١٧٤-١١٩٣م، تحقيق/ جمال الدين الشيال، (القاهرة ١٩٥٧)، ص٣١٨.

Otto of St. Blasien, Third Crusade, p. 532؛ Angold, Byz. Empire, p. 286.

لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الجانبين وأثرها في إعاقة الجيش الألماني:

Brand, Ch., "The Byzantines and Saladin 1185-1192: Opponents of the Third Crusade", Sp., 37 (1962), pp. 167-181.

عادل عبد الحافظ، العلاقات السياسية، ص١٤٢، ١٤٤-١٤٧.

(٤) ذيل تاريخ وليم الصوري، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة/ سهيل زكار، (دمشق

ومنذ أن عبر الجيش الألماني نهر الدانوب ودخل المنطقة البيزنطية في (شعبان ٥٨٥هـ/ أغسطس ١١٨٩م) ظهر عداء البيزنطيين له، ووضع إسحاق العراقيل أمامه لإعاقة سيره، واستمر هجوم القوات البيزنطية عليه حتى وصل مدينة فيليوبوليس ٢٤ أغسطس[١]، عند ذلك قامت القوات الألمانية-خاصة بعد أن علم فردريك بسجن إسحاق لسفارته في القسطنطينية[٢]- بتدمير المنطقة المحيطة بفيليوبوليس واقتحام المدينة في ٢٦ أغسطس[٣]، وزادت الأوضاع سوءًا بين الطرفين وقام الجيش الألماني بالإستيلاء على ثلاثة مدن وعشر قرى بيزنطية، وأرسل فردريك إلى ابنه هنري في ١٦ نوفمبر خطابًا[٤] طالبًا منه إعداد أسطول؛ لمحاصرة القسطنطينية والإنتقام من إسحاق، وأن يطلب من البابا الدعوة لحملة صليبية ضد الدولة البيزنطية[٥].

=

١٩٩٣)، ج٨، ص٣٥٤.

(١) لمزيد من التفاصيل:

Ansbert, Historia, pp. 37-38؛ Historia Peregrinorum pp. 132-140؛ Magnus of Reichersberg, Chronica Colleta, ed, Pertz, G.h., MG.H.ss, 17, (Hanover 1860) p.513؛ Frederick Barbarossa and Henry VI", in: Setton, K.M., & Baldwin, M.W. (eds), A History of the Crusades, 2, (Philadelphia 1962) pp. 98-101.

(٢) كجزء من استعدادات فردريك للقيام بحملته أرسل إلى حكام وملوك الدول الذي سيعبر أراضيهم ومنهم إسحاق الذي وافق على مطالبة، وأرسل سفارة عقدت مع فردريك اتفاق في مدينة نورمبرج، وعلى أثر ذلك أرسل فردريك سفارة من عنده للإشراف على الترتيبات اللازمة لإستقبال الجيش الألماني فاستولى إسحاق على ممتلكاتها وزج بها في السجن.

Ansbert, Historia, pp. 15-16؛ Choniates, Annales, p. 221؛

Pacaut, M., Frederick Barbarossa, EnglishTrans. Pomerans, A.J., (London 1970), p. 202.

(3)Ansbert, Historia, pp. 38-40؛ Historia Peregrinorum, pp. 140-141؛ Choniates, Annales, p. 222؛ Pacaut, Frederick Barbarossa, pp.203-204

ذيل تاريخ وليم الصورى، ص٣٥٤.

(4)Ansbert, Historia, pp. 40-43.

انظر الملحق الثالث.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن أحداث عنف جيش فردريك في الأراضي البيزنطية:

Historia Peregrinorum, pp. 141-142؛ Choniates, Annales, p. 222؛

Johnson, Crusades, p. 104؛Brand, Byzantium Confronts, pp. 180-182.

ومع استمرار الهجوم الألماني على الأراضي البيزنطية، الذي اتخذ فردريك، ادريانوبل في ٢٢ نوفمبر قاعدة له طيلة فصل الشتاء، وبعد أن شهد إسحاق سائر بلاده معرضة للدمار والخراب، أيقن الهزيمة فأرسل مندوبيه في (ذو القعدة ٥٨٥هـ/ يناير ١١٩٠م) لفردريك طالبًا الصلح وواعدًا بتوفير المؤن والسفن للعبور وتقديم رهائن من أفضل رجال دولته كتأكيد على ذلك، وتم إبرام المعاهدة بين الطرفين في ١٤ فبراير[١].

واستطاع فردريك بهذه المعاهدة إحراز كل ما أراد من تسهيلات لرحلته المقبلة دون أن يقدم أي تعهد أو إلزام فيما يتعلق بآسيا الصغرى، وعبر بعد ذلك بقليل إلى آسيا الصغرى متفائلاً حيث حليفه وصديقه القديم قليج أرسلان الثاني الذي وعده بتقديم المساعدة لجيشه، وواثقًا من وصوله إلى بلاد الشام بكامل قواته ولم يكن يتوقع ما ينتظره وجيشه من قدر مشئوم على أراضي آسيا الصغرى.

من هذا كله تتضح أهمية إقليم آسيا الصغرى وما لعبه من دور في سياسة الأباطرة البيزنطيين تجاه الحملات الصليبية، إذ كان هذا الإقليم واسترداد أراضيه هو المحور الذي دارت حوله المناقشات بين الأباطرة البيزنطيين والقادة الصليبيين، ونظرًا لهذه الأهمية فقد قدم هؤلاء الأباطرة كل ما استطاعوا من مساعدات للحملات الصليبية، ومن العسير تصور أن يكونوا هم السبب في الهزائم التي واجهتها هذه الجيوش في آسيا الصغرى، أو يقدموا على خيانة قادتها وهم يسعون إلى استغلالهم من أجل استرداد أراضيهم المغتصبةفي آسيا الصغرى، وإنما تعود هذه الهزائم إلى السلاجقة وما اتخذوه من وسائل لمقاومة هذه الجيوش الصليبية.

******

(١) عن بنود هذه المعاهدة:

Ansbert, Historia, pp. 148-149؛ Historia Peregrinorum, pp. 149-150؛ Brand, Byzantium Confronts, p. 183؛ Pacaut, Frederick Barbarossa, p.533.